رواية

الفيلسوف الألماني غوته

آلام فارتر

ترجمة

أحمد حسن الزيات



آلام فارتر

الفيلسوف الألماني غوته

ترجمة: أحمد حسن الزيّات

آلام فارتر

ترجم عن الألمانية:

Die Leiden des jungen Werthers

الفيلسوف الألماني غوته

ترجمة: أحمد حسن الزيّات

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2019

First Edition: Beirut _ Lebanon, 2019



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com — dar alrafidain

info@daralrafidain.com — Daralrafidain

www.daralrafidain.com — دارالرافدين@daralrafidain_I

ISBN: 978 - 9922 - 607 - 29 - 0



غوته

من حياة غوته

ولد جان ولفجَنج غوته شاعر ألمانيا وفيلسوفها في «فرنكفورت سيرليمين» عام 1749، ثم صبت نفسه إلى درس الحقوق فدرسها في لبزج ثم في استرسبورج. ولما نال درجة الدكتوراه فيها سنة 1771 صدف عنها ورغب في الأدب فكان مبعثاً لحركته وروحاً لنهضته. ثم استقر به المقام في «ويمر» لدى الغرندوق «شارل أوجست» سنة 1775.

وفي خلال ذلك نشر رواية «جوتز يرليشنجن» سنة 1772 على طريقة شكسبير، و«آلام فرتر» سنة 1774 وهي تاريخ فترة من شبابه أجمل فيها آمال عصره، وعبر بها عن منازع نفسه، وخلق فيها نوعاً طريفاً من الأدب، ثم كتب قصة «الكونت ديجمونت» سنة 1775، و«وليم مستر» سنة 1777، و«ايفجيني» سنة 76. ثم أزمع الرحلة إلى إيطاليا فأقام بها ثلاثة أعوام كتب فيها «تركانوتاسو». وفي سنة 1794 اتصلت المودة بينه وبين «شلر» ونشر كثيراً من القصائد الرائقة والكتب الممتعة. ثم ألف الجزء الأول من رواية «فوست» عام 1798، وزاره نابليون في «ارفرت» وقلده «صليب جوقة الشرف» سنة 1808، ثم أصبح وزيراً لحكومة دوق ساكس ويمر سنة 1815، وشغل فراغه بالكتابة مذكراته ورحلته إلى إيطاليا، وأكمل رواية «فوست» ثم قضى نحبه في 22 مارس سنة 1832 بويمر.

مقدمة

للدكتور طه حسين

لعل حاجتنا إلى النقل والترجمة لم تبلغ قط من الشدة ما بلغته اليوم، فنحن في عصر انتقال من طور إلى طور. وأخص ما يميز عصور الانتقال الظمأ إلى العلم بكل شيء، والرغبة في تعرف كل جديد.

يسأم الشعب في هذه العصور ما ألف قراءته من كتب، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية، والوقوف عليه من آثار الفن، ويود لو استطاع أن يجد من الطريف المستحدث ما يشفي علته، وينفع غلته، ويخرجه من هذه البيئة التي طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة. وقد كان يحسب نفسه كل شيء فإذا هو يشعر بأن على الأرض شعوباً أخرى تقاسمه الحياة وتشاطره ما اشتملت عليه من لذة وألم، ومن سعادة وشقاء، وأن هذه الشعوب قد اتخذت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع، ومن مناهج البحث والتفكير، ما لم يألفه ولم يهتد إليه.

فما أشد ظمأه إلى أن يعرف من أمر هذه الشعوب ما جهل، ويقف من حياتها الاجتماعية والعقلية على ما خفي عليه.

فكل من نقل إليه كتاباً من كتب العلم، أو لخص له فصلاً من فصول الفلسفة، أو ترجم له من الآثار الفنية والأدبية ما يعرب عن شعور هذه الشعوب وعواطفها، وعن ضروب إحساسها للأشياء وتأثرها بها: فقد صادف منه مكان الحاجة وأشرف به من البغية على ما يريد.

ليس هذا الأمر من اليسر والسهولة بحيث يظن كثير من الذين يتصدرون للنقل والترجمة، فإنّ سأم الشعب من كل قديم، وتهافته على كل جديد، من غير أن يروّي في النفع والضر،

أو الخير والشر، يهيّئه لقبول ما ينقل إليه من حسن ورديء، فخليق بالناقل أن يلاحظ استعداد الشعب وحاجته، وألا ينقل إلا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه، ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله، ويقوّم من عوجه، ويعينه على التطور والانتقال، وليس هذا بالهين ولا باليسير.

فإذا وفق الناقل إلى اختيار ما ينقل فأمامه من الصعاب ما يعسر تذليله، ومن العواقب ما يصعب تمهيده. أريد صعوبة النقل في نفسه، فإن الناقل ليس حرياً أن يحسن اللغة العربية التي ينقل إليها، واللغة الأجنبية التي ينقل عنها فحسب، بل هو خليق أن يحسن الفن الذي ينقله إحساناً تاماً، وأن يكون من إجادته بحيث يستطيع النقد والمناقشة إذا كان موضوعه علمياً أو فلسفياً، فإذا كان فنياً أو أدبياً فالصعوبة أثقل بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول فيشعر بقلبه ويحس بحسه، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف، ويصفها بهذا اللسان الذي وصفها. فإن الترجمة في الفن والأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي، إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية، فكيف بها في لغة أخرى؟ إنما الترجمة والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كلاهما صعب عسير: الأول أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف، وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثير والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواس المؤلف وملكاته إن صح هذا التعبير. والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشد الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها.

وخلاصة القول إن المترجم يجب أن يجتهد ما استطاع لا في أن ينقل إلينا معنى الألفاظ التي خطتها يد المؤلف بل في أن ينقل إلينا نفس المؤلف جلية واضحة تتبين فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الإحساس والشعور.

* * *

لقد وفّق صديقنا الزيّات إلى هذا كله حين نقل إلى اللغة العربية «آلام فرتر» للشاعر الفيلسوف «جوت». وفّق إلى حسن الاختيار، فما كان لشعب يُجِلّ نفسَه ويريد أن يُعَدَّ بين

الأمم الحية أن يجهل شاعراً فيلسوفاً كجوت قد أثر نبوغه الفني والفلسفي في الحياة العلمية والنفسية للعالم الحديث أشد تأثير. وما كان لهذا الشعب أن يجهل كتاباً كآلام فرتر قد عرفه الناس جميعاً في أوربا فأحبوه وكلفوا به، حتى أنك لا ترى فتى ولا فتاة في السادسة عشرة من العمر إلا قرأه وقرأه وحاول أن يتفهم معانيه ويتأسى بما فيه، وخيل إليه أن هذا الكتاب لا يصف ما جال في نفس خاصة من فكر، وما ملكها من هوى، وما أثر فيها من عاطفة، إنما هو يصف الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وعلى تباين الأحوال والظروف.

تلك خصلة تمتاز بها الكتب التي أنشئت لتبقى أبد الدهر وقضي أن يكون الخلود لها نصيباً. تخلد لأنها لا تصف الأشخاص التي تفنى وتزول، وإنما تصف النوع الذي يبقى ويدوم. وخصلة أخرى قضت لهذا الكتاب بالبقاء والخلود، هي أنه لم يقف عند تمثيل الحياة النفسية للشباب في طور من أطوارها، وإنما وضع للإنسانية مثالاً على الفضيلة تحس كل نفس الميل إليه، وتود له بلغته أو دنت منه، فهو يمثل الإيثار والتضحية أحسن تمثيل، ويصور الولاء للأصدقاء والوفاء للأحباء أجلَّ تصوير. كل ذلك من غير تكلُّف ولا تصنُّع، ومن غير محاولة ولا عناء.

تبع المؤلف طبيعته، وجرى مع فطرته، فما كان إلا أن تناول القلم وخط به فأخرج من ذلك أحسن صورة حية خلّابة يرى فيها كلُّ امرئٍ نفسه ويشعر مع ذلك بأنه في حاجة إلى شيء من الجد غير قليل، وإلى مقدار من العناء غير يسير، ليبلغ ما تصوّره من الكمال.

وُفِّق صديقنا الزيات إلى حسن الاختيار، فإن الكتاب الذي ترجمه على ما له من شهرة تلزم كل ناشئ أن يقرأه ويتفهمه، يمثل حياة الآداب الأوروبية في عصر هو أشد العصور شبهاً بهذا العصر الذي نسلكه، فقد كانت أوربا حين كتب جوت «آلام فرتر» تعبر عصر انتقال كعصرنا الذي نعبره، سئمت مثلنا كل قديم، وشغفت مثلنا بكل طريف. وودت لو أراحها الكتّاب والشعراء من تلك الأساليب التي ألفوها فيما يكتبون وينظمون، ومن تلك الآراء البالية التي كانوا يرددونها في كل ما يقولون، حتى كأن حياتهم العقلية والنفسية لم تكن

إلا صورة وفق الأصل لحياة من سبقهم من الكتّاب والشعراء مع تغيير الأحوال الاجتماعية والسياسية، واستحالة النظريات العلمية والفنية. وليس على هذا السأم والملل من دليل يعدل ما كتبه «جوت» إلى أحد الشعراء:

«دعني أشعر بشيء لم أحسه من قبل، وأفكر في شيء لم أعهد التفكير فيه، أشكر لك ذلك شكراً جميلاً، فأما وضع الضجيج والعجيج مكان التأثر والانفعال فلسنا في حاجة إليه الآن».

كذلك كان يفكر «جوت» في ألمانيا، وكذلك كان يفكر غيره في فرنسا وإنجلترا. كان الكتّاب الأوروبيون يودون لو خلصوا من تلك الأعباء الثقيلة التي كانت تنوء بالفن الأدبي، ورجعوا في التعبير عن إحساسهم وعواطفهم إلى الطبيعة الحرة الطليقة. لذلك نشأت طريقة «روسو» في فرنسا، وهي بعينها طريقة «جوت» في ألمانيا. كلا الرجلين يريد أنّ يترك لوجدانه وعواطفه الحرية في أنّ تظهر للناس واضحة جليّة لا تشوبها شوائب الزخرف والتنميق، ولا تشوّهها معايب التصنع والتقليد.

لذلك كان «روسو» ينادي باقتفاء أثر الطبيعة في كل شيء، في النظم والنثر، بل في أنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية. وكان «جوت» ينادي بمثل هذا في الآداب والفنون الجميلة. كانت آثار هوميروس وشكسبير وبيرن رفاقه في وحدته، ونموذجه في طريقته. وهو لم يكتف بمجاراتها وتقليدها، بل كانت شخصيته أشد وأقوى من أن تقف عند المجاراة والتقليد فظهرت واضحة جلية في كل ما كتب.

كان «جوت» شديد الاعتراف بشخصيته والميل إلى إظهارها، فلم يستطع أن يسلك طريق غيره من الكتّاب فيتخذ لكتبه وقصائده موضوعات لا تمس شخصه ولا تتصل به، بل كان في كل ما كتب إنما يعبر قبل كل شيء عن عواطفه الخاصة وما لقي في دهره من خير وشر.

* * *

ليست «آلام فرتر» قصة منتحلة أو بناء متكلفاً استعيرت أجزاؤه المختلفة من الخارج؛ إنما هي قصة ما أصاب «جوت» نفسه إبان شبابه. ومن هنا برئ الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع.

هام «جوت» بينما كان في «وتسلار» يتدرب على المحاماة بفتاة يقال لها «شرلوت» وهامت به هذه الفتاة، ولكنها كانت مخطوبة إلى فتى يقال له «كستنر». وأبى هذا الهيام إلا أن يأخذ شكل الصداقة والإخاء الصحيحين. وقد حاول «جوت» أن يحفظ لهذه الصلة شكلها البريء فاتصل الإخاء بينه وبين كستنر، وألف العاشقان والعشيقة جماعة تصل بين أفرادها صلة ظاهرة نقية. ولكن الحب كان أشد قوة وبأساً من الشجاعة النفسية والحرص على المودة والوفاء.

أشفق «جوت» على نفسه وعلى صاحبيه فترك «روتسلار»، وتم القران بين الخطيبة وخطيبها، فأحدث ذلك في نفس شاعرنا ضروباً شتى من التأثر والانفعال؛ فتارة يرضى، وتارة يسخط، وأحياناً يذعن، وأخرى يثور. ونجد ذلك كله مصوراً في «آلام فرتر». ولكن الكتاب يخالف الواقع في شيء واحد هو أن «جوت» لم ينتحر كما انتحر فرتر. ولم يكن بينه وبين صديقه «كستنر» من البغض والعداء ما كان بين «فرتر» و«ألبير» في آخر أيامه. إنما أخذ «جوت» فكرة الانتحار من حادثة وقعت في «وتسلار»؛ وهي أن شاباً قد عرفه العاشقان سري الخلق رقيق الطبع انتحر لإخفاقه في قصة غرامية بينه وبين فتاة من فتيات المدينة. فأخذ «جوت» من هذه الحادثة ما ختم به حياة «فرتر».

ألف «جوت» «آلام فرتر» سنة 1774 فلم يمض على انتشاره أشهر حتى عرفته ألمانيا كلها، وحتى كان مجد مؤلفه شاهقاً متين الأساس. ولكن وقع هذا الكتاب الغريب في نفس صديقته شرلوت وكستنر كان شديداً. فاشتد اللوم والعتاب من جهة، واشتدت الأعذار والاستغفار من جهة أخرى، ثم كان العفو والأعذار. ولعل من ألذ ما يقرأ القارئ ما كان بين هؤلاء النفر الثلاثة من الرسائل التي نشرها للناس رابع أولاد «شرلوت» و«كستنر» في منتصف القرن التاسع عشر.

لا يزال الكتّاب يختلفون ويتناقشون فبعضهم يبيح للكاتب والشاعر وللمناقش والمصور أن يتخذ الأشخاص الأحياء وحياتهم موضوعاً لنظمه ونثره، ولنقشه وتصويره، لأن ذلك إن آذى الأشخاص وأساء إليهم ففيه للجماعة خير وإحسان. وبعضهم يحظر عليه أن يسلك هذا المسلك لأن حياة الأشخاص وأسرارهم وشعورهم وعواطفهم مقدسة ليس لأحد أن يبيحها أو يذيعها مهما كان ذلك نافعاً ومهما اشتمل عليه من الخير. وسواء أخطأ أولئك أم هؤلاء فإن «آلام فرتر» قد نشرت في أوربا فتهافت عليها الناس وأحدثت في نفوسهم من الأثر الحسن أو السيء ما كانت خليقة بأحداثه. وهي لا تزال إلى الآن وستبقى أبد الدهر موضع بحث العلماء وعناية الفنيّين.

* * *

من الناس من يأخذ على هذا الكتاب أنه يحمل الشباب على الانتحار ويرغبهم فيه ويستدل على ذلك بالعدد الوافر الذي انتحر من الشباب في ألمانيا وفرنسا وغيرهما من بلاد أوربا عند قراءته. ويخيل إليّ أن هؤلاء لم يوفّقوا إلى القصد ولم يهتدوا سواء السبيل. هبْ أنَّ الكتاب قد ساء أثره حيناً ما فإن هناك حقيقة ليس لإنكارها من سبيل: هي أن الكتاب قد بلغ من الجمال والروعة مبلغاً يلزم كل محب للفن أن يقرأه ونزل من آثار الفن الحديث منزلة توجب على كل أستاذ من أساتذة الأب أن يقف عليه. على أني أعتقد أن ما كان من سوء أثر الكتاب عند ظهوره قد بولغ فيه وأسرف الناس في وصفه؛ فإنما أساء بعض الشبان ذوي النفوس المريضة فهمَه والاستفادة منه، لأن ظروف الحياة الاجتماعية كانت من الشدة والضيق في أوربا بحيث تجعل نفوسَ كثيرٍ من الناس ضعيفة رخوة، وخانعة مستسلمة، لا تستطيع مقاومةً ولا احتمالاً. وآية ذلك أن الكتاب لا يزال يُقرأ ويدرس، بل هو الآن يُمثَّل في الملاعب ويُغنَّى في دور الموسيقى من غير أن يحدث من سوء الأثر وقبح العاقبة ما أحدثه حيناً ما.

ذلك لأن الظروف الاجتماعية الخاصة التي ملأت نفوس الأوروبيين سأماً ومللاً في أوائل القرن التاسع عشر قد انقضت واستحالت، وأصبح الناس وقد ملأهم الأمل وملكتهم الرغبة

في الحياة وما فيها من لذة ونعيم، فلم يبق من هذا الكتاب إلا أثره النافع وهو كما قدمنا عظيم جليل الخطر.

* * *

وُفِّقَ صديقُنا الزيات إلى حسن الاختيار، ووُفِّقَ إلى حسن الترجمة أيضاً على ما كان يعترضه في سبيل ذلك من المصاعب والعقبات. فإن «آلام فرتر» ليست من السهولة واليسر بحيث يستطيع القارئ أن يفهمها لأول مرة قراءة بله القدرة على نقلها وترجمتها. ذلك لأنها صورة نفس كبيرة دقيقة الحس والعاطفة هي نفس «جوت»، ولأن فيها من دقيق الوصف الحسي من جهة، والآراء الفلسفية من جهة أخرى، ما يعسر فهمه والوقوف عليه. أضف إلى ذلك أن اللغة العربية لم تألف هذا النوع من الوصف والفلسفة لأن أبناءها لم يسلكوا بها هذا الطريق. فإذا لاحظنا أن الأستاذ الزيات لم ينقل هذا الكتاب من لغته الأولى، وإنما نقله عن الفرنسية(1)، وإنه قد استطاع مع هذا كله أن يخرج لنا منه صورة صحيحة رائعة، عرفنا مقدار ما عانى في سبيل ذلك من مشقة وما كابد من صعوبة، ولكنني أخشى إذا أطلت في مدح صديقي وقدمت إليه من الشكر والثناء ما هو خليق به أن أسيء إليه أو أن أؤذيه؛ فقد عودني وعودته أن نتقارض النقد لا أن نتقارض الثناء.

فإلى الشباب العربي أقدم باسم صديقي هذا الكتاب وأنا واثق أنه سيجد من عنايتهم به، وانكبابهم على قراءته وتفهمه، أجمل شكر على ما بذل من جهد، وأحسن تشجيع على ما هو باذل في خدمة الأدب منذ اليوم إن شاء اللّه.

(1) ترجم عن طبعة فلامريون وترجمة «سفلنج» و«بيتوب» وقوبل على ترجمتين أخريين.

إهداء المترجم

صديقي أ. ز. نزيل نوتنجهام

لو سألتني وأنا أعلم الناس بك أن أصف خطرات نفسك، وأصور نزعات وجدانك وحسك، لما كنت إلا فرتر!

فيك دقة شعوره ورقة قلبه. فيك قوة إخلاصه وشدة حبه. فيك حدة ذكائه وتصوره. فيك سرعة بكائه وتأثره. فيك حدبه على المستضعفين، وسخطه على المتكبرين. فيك خياله الوثاب وروحه الجذاب وخلقه المصفى و… غرامه اليائس!

قرأت فرتر ليالي ناءت بقلبك الغضّ عاطفة أليمة فأقضّت مضجعك، وأسالت مدمعك، وتركتك كالملاك روحاً الحي والشعور الصادق والحب البريء، فكانت حالتك تمثيلاً لحالته، وآهتك تفسيراً لعبارته ثم ترجمته وقد سافرت كما سافر، فكان شخصك في ناظري، ووحيك في خاطري، ولفظك على لساني، ويراعك في يدي.

أنتما المثل الأعلى للشبيبة الحساسة العاملة. وما رجوت من نقل هذه النفحات السماوية إلا إيقاظ العواطف السامية في صدور الشباب، فإن مبعث النهضات الاجتماعية إنما هو العواطف المتقدة، والخواطر الملتهبة، والنفوس المضطربة؛ أما العقول الرزينة الهادئة، والأذهان المنطقية الساكنة، فهي خمود ثورة القلوب، وقعود في نهضة الشعوب! فإليك يا صديق النفس ومهوى الفؤاد أقدم هذا الكتاب. لأنك أعلم الناس بواجبه، وأفهم القارئين لكاتبه، وليكون تحية على البعد خالدة، وآية على الإخلاص والود شاهدة.

أول مدارس سنة 1920

«أ. الزيات»

تقدمة المؤلف

عنيت بجمع ما تيسر لي جمعه من نبأ البائس فرتر. وإني أقدمه إليك واعلم أنك ستحمد ما صنعت، وتشكر لي ما جمعت. إنك لن تستطيع وأنت تقرأه أن تحبس نفسك عن الإعجاب بفكره وقوة حسه، ولا قلبك عن الولوع بخلقه وشرف نفسه، ولا عيبك عن البكاء لعثار جده وبؤسه.

وأنت أيتها النفس اللطيفة الشاعرة! إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه، وتلمسي البرء والشفاء في أسقامه، واتخذي هذا الكتاب صاحباً وصديقاً إذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدي من الأصدقاء من هو أقرب إليك، وأحنى عليك.

«غوته»

الجزء الأول ٤ مايو سنة ١٧٧١

لشد ما أبهج نفسي وأثلج فؤادي أنني سافرت! وتلك عجيبة من عجائب القلب يا صديقي! كيف أسرّ وقد روعنا البين(2) وصدعنا الفراق، وأنت الذي أشربت(3) محبته وما كنت أطيق الصبر عنه؟! على أنني واثق منك بالصفح والمغفرة.

إن صلاتي بغيرك كانت على ما رأيت وسيلة من وسائل القدر لتعذيب قلب شديد الحساسية كقلبي. وا رَحمةً لك إلينور! لقت تألَّمتِ في رضاي، وشقيتِ في هواي، ولكنني ما لقيتِ بريء. ما ذنبي إذا كان الهوى ينبت سراً في قلبها البائس على حين كانت أختها تبتغي الوسيلة إلى قلبي بملاهيها الجميلة ورشاقتها الفاتنة؟ على أنني لا أبرئ نفسي كل البراءة. ألم أناقلها أحاديث الهوى والصبابة؟ ألمْ أَلْهُ بلهجتها الساذجة الصادقة في شرح وجدانها وشعورها؟ ولطالما أضحكني ذلك منها وإن لم يكن في الأمر ما يضحك! ألم... أوّاه! ما الإنسان حتى يجرؤ على شكاية نفسه؟

لقد وعدتك يا صديقي أن أصلح نفسي، فلا أريد أن ألحَّ كما كنت أصنع في اكتناه(4) الأشجان اليسيرة التي ترشقنا بها يد القدر. أريد أن أنعم بالحاضر وأعدّ الماضي نسياً منسياً.

لقد أصبت؛ فإن الناس لو لم يروّضوا(5) مخيّلاتهم ويريدوها على أن تذكر هموم الماضي لكانوا أخف حزناً وأقل ألماً. واللّه يعلم لمَ جُبلوا كذلك وقد كانوا أحرياء أن يعملوا على أن يجعلوا كفاف حاضرهم محتملاً مقبولاً. قل لأمي ـ ولك الفضل ـ أنني سأعنى بقضيتها وسأطالعها بخبرها عما قليل...

لقد قابلت خالتي فوجدتها ليست من الخبث في المنزلة التي أحللناها إياها. أجل، إنها حديدية الطبع قصيرة الأناة(6)، ولكنها طيبة القلب نبيلة النفس... بسطت لها ما تشكوه أمي من أمر تراثها(7) المغصوب فوقفتني على أسباب تلك الشكوى وقالت: إنها مستعدة أن

تنزل لنا عن أكثر مما ندعيه على شروط ذكرتها. وقصاراي اليوم أن أقف في هذا الموضوع عندما كتبت. فقل لوالدتي أن الأمر سينتهي على ما تحب.

زادتني هذه المفاوضة القصيرة علماً بأن سوء التفاهم والإهمال ربما أحدثا من الشقاق والخلاف مما يحدثه الخب(8) والخبث؛ فإن تساويا في الأسباب فهذان أندر وجوداً.

أصبحت في هذا المكان رافهاً وادعاً. أجد في مناظره بهجة الفردوس وزهرة النعيم، وفي الخلوة به دواء القلب وشفاء النفس؛ وأقبس فؤادي المقرور(9) من هذه الحرارة الفائضة والحياة النابضة في ذلك الربيع الطلق.

عملت فيه يد الطبيعة فجعلت كل شجرة وكل سياجٍ لفيفاً من الأزهار. فمن رآه تمنى لو يصير فراشة فيطير فوق هذا المحيط المائج بالعطر والطيب يتلمس فيه غذاءه الوحيد.

المدينة قليلة الرواء والجمال؛ ولكن الله عاضها من ذلك بهجة حواشيها ونضرة ضواحيها. فإن جمال الطبيعة فيهن لا يدركه وصف. ولا يسأمه طرف. وذلك ما حدا بالكنت «م» أن يخط حديقته على ربوة من تلك الربى الجميلة التي تتلاقى فتكون الأودية الأنيقة الرائعة.

هذه الحديقة ساذجة النظام والزخرف، يتمثل في خاطر من يدخلها لأول وهلة أن رسومها لم تخطها يد جَنَّان(10) صَنَّاع(11) بل دبّجها قلب حساس ليتمتع فيها بنفسه، وليذهب مع خياله وحسه.

وقفت بالجوسق(12) البالي الذي شاده صاحب الحديقة بها ليكون مثوى لنفسه، وملاذاً لها من همه، فأرسلت عيناي عبرتين على ذكرى هذا الراحل، واتخذت هذا المكان من بعده حمىً ومستقراً.

سأصبح عما قليل رب الحديقة، فقد توثقت بيني وبين البستانيّ عرى المودة. ولن يجد مني بحمد الله ما يعقبه على تلك الصداقة ندماً.

1 مايو

أصبحت نفسي طليقة من عقال الهموم عريقة في صفاء الهدوء، مشابهة للربيع الطلق في سكون صاحبه الضاحك، وجمال ضحاه الزاهر، متمتعة بما تشاهد من جلاله وروائه.
وغدوتُ في هذا البلد الملائم لقلبي وحيداً مرسل النفس مطلق العنان في متع الحياة ومسرّاتها. أنا يا صديقي رخيّ البال سعيد النفس، وإنّ قواي وملكاتي لفانية مستغرقة في سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة؛ وذلك ما يسخط الفن ولا يرضي القلم؛ فإن من المجال في مثل هذه الحال أن أرسل خطا أو أخط رسماً. على أنني لم أكن كاليوم، أقوى شعوراً بالكون ولا أتم استعداداً للرسم. أقلب النظر حولي فأرى ذلك الوادي الحبيب وقد غشيه من البخار سحاب مركوم(13)، وأبصر الشمس في متوع(14) النهار تبدو بلألائها نقيض ظلام الغابة الحالك. وتتسرب أشعتها إلى جوف محرابي المقدس، وأتبين ضروباً شتى من النبات وأنا أنظر في أديم الأرض مفترشاً بساط الأعشاب الطويلة على مقربة من هدير الجدول؛ وأتأمل ذلك العالم الصغير يموج بعضه من بعض تحت وريقة من أوراق الكلأ(15)، وتلك الحشرات والهوام ذوات الأشكال العديدة والألوان المختلفة التي تتحدّى الناظر وتعاجز المراقب؛ وأحس في نفسي حضور القوي القادر الذي برأنا(16) على صورته، وأمدّنا بروحه(17) وقوته، وقادنا إلى النعيم المقيم بفضله ومنّته. أرى كل ذلك يا صديقي وأشعر به فترتفع عن ناظري أغشية الحجب، وتنطبع في خاطري صورة هذا العالم الكبير كما تنطبع في القلب صورة المحبوب، فتستخفّني نزيَّةٌ(18) من الشوق إلى تصويره، وأقول لنفسي: «آه! ليتني أستطيع أن أشرح كل هذا! وليت يدي تقدر على إبراز ما أثّر في نفسي من هذه المناظر والمظاهر على القرطاس جليّاً نقيّاً، فتكون هذه الصورة مرآة نفسي كما أنّ نفسي مرآة الله. ولكن بهاء هذه الصور، وسناء تلك الرؤى(19) يملكان علي طريق العمل فأقف إزاءها وضيعاً، وأخرّ أمامها صريعاً!

12 مايو

لعمرك ما أدري أأرواحٌ ساحرة تجول في هذا الوادي، أم خيالٌ سماوي تسلّك فؤادي وخلع على ما حولي من الأشياء وضاءة الحسن ونضارة الفردوس؟ على مقربة من هذا المكان ينبجس ينبوع عذب بثُّ به مفتوناً وبقربه مسحوراً كأنني ميلوزين(20) وأخواتها. يهبط الذاهب إليه من رابية فصغيرة فيجد بناءً معقوداً ذا عشرين دركة(21) تنزل به إلى ذلك الماء النّمير الذي يسَّاقط من خلال الرخام قطرة فقطرة. أقف بهذه المغارة فأشاهد الحائط القصير الذي يكتنفها، والأشجار الباسقة التي تكلّلها، وطراءة الهواء المنعشة التي تملؤها، فتفيض جوانب نفسي جلالاً ورهبة. وهيهات أن ينقضي يوم دون أن أقضي في هذه المغارة ساعة من نهار. كذلك فتيات المدينة يَرِدْنها كل يوم فيملأن جرارهن، وذلك عمل نافع بريء ما كانت بنات الملوك قديماً يخجلن من مزاولته، ولا يأنفن من مباشرته.

لا أكاد أجلس في هذا المكان حتى تتمثل في خاطري ذكرى العهود الأولى؛ عهود الحياة الأبوية(22)، فيخيل إليَّ أنّي أرى أولئك الآباء والكهول وهم على الماء يتعارفون ويتصافقون(23) ويزوجون بنيهم من بناتهم بدالاً(24)، وتتراءى لعيني أرواح خيرة تطوف حول آبار وعيون.

من لم ينل يا صاح نصيبه من هذا الشعور، ويدرك قسطه من هذا التأثر، لم يذق قط حلاوة النسيم الرقيب. على شفير المنهل العذب، بعد مسير يوم قائظ تتوقد هواجره، وتتحرق سمائمه.

13 مايو

بعثت إلي تسألني هل ترسل كتبي إلي؟ نشدتك اللّه ألا تفعل! دعني أستنشق نسيم الراحة. لا اريد أن أقاد ولا أن أهاج ولا أن أحرَّض. إن قلبي كالسيل المتدفق الهادر؛ فهو أحوج إلى أن يهدهد(25) بالغناء حتى يقر ويسكن. وإن في شعر هوميروس لبلاغاً وغنية. لشد ما وجدت في هذه الأشعار مسكّناً لدمي الفائر، ومهدئاً لقلبي الثائر! فإنك لا ترى في القلوب أشد تغيراً ولا أكثر اضطراباً من قلبي. وهل أنا في حاجة إلى أن أبوح لك بهذا القول وأنت

الذي طالما ابتأست إذ تراني أتحول فجأة من شدة الوصب إلى هزة الطرب، ومن سكون الحشمة إلى حدة الهوى؟ أنا أعامل قلبي معاملة الطفل المريض: أسير على حكمه. وأقف عند إرادته. لا تجهر لأحد بهذا، فإنّ من الناس من يراه جريمة.

15 مايو

سرعان ما عرفني أهل القرية وأحبني كبارها، وأنس إليّ صغارها، وقد كنت في بادئ الأمر كلما دانيتهم برفق، أو ساءلتهم بلطف، نفروا مني وأعرضوا عني كأنهم يظنون أني أهزأ بهم وأسخر منهم! ما كنت أكترث لهذا ولا أعوج(26) به. إلا أنّه زادني يقيناً بما لاحظته غير مرة: لاحظت أن بعض الخاصة يعتزلون الشعب ويترفعون عنه ترفعاً ثقيلاً، كأنهم يخشون أن يطأطئ ذلك من عزتهم، ويغض من قيمتهم! وآخرون منهم طائشون لا يقتربون من الدهماء(27) إلا ليؤلموهم بالنظرات المزرية، ويخزّوهم بالكلمات المندية(28).

أعلم علم اليقين أنّ الناس ليسوا جميعاً سواء، وأن من المحال أن يكونوا كذلك؛ ولكني أرى أن من يجد نفسه في حاجة إلى أن يقف على مرحلة مما يسمونه الشعب، ليعظم قدره في النفوس وترسخ مهابته في الصدور، ليس أقل خطأ من ذلك الجبان الذي يختبئ من قرنه خشاة أن يهوي صريعاً ليَدَيه أمامه.

ذهبت إلى الينبوع بالأمس فبصرت عنده بفتاة قد وضعت جرتها على الدركة السفلى، ثم تلفتت يمنة ويسرة لعلها تجد من صواحبها من تعينها على حمل الجرة؛ فهبطت إليها وقلت لها بعد أن تأملتها: «أتقبلين يا بنيتي العزيزة أن أساعدك على حمل جرّتك؟» فضرّج الخجل وجنتيها وأجابت بلهجة الصاغر(29) المشدوه: «أوه! عفواً يا مولاي!» فقلت لها: «هلمي فلا بأس من ذلك ولا كلفة». فأصلحت حويتها واستقلت جرتها، ثم صعدت السلم ممتنة شاكرة.

17 مايو

عرفت الناس آحاداً من كل نمط، ولم أوفق إلى اختيار صحابة منهم بعد. ولا أدري أي شيء فيّ يعطف الناس عليَّ ويجذبهم إليّ. فإن كثيراً منهم يعجبون بخصالي، ويصلون حبالهم بحبالي، وقد أحس من قلبي الإصغاء(30) إليهم بالمودة حتى ليحزنني وأنا أماشيهم أن يقف بنا الطريق فلا نواصل السير جميعاً.

إذا سألتَ ما حال الرجال في هذا البلد فاعلم أن الناس هم الناس في كل مكان، وأن بني آدم على غرار(31) واحد، تجد سوادهم يتفق معظم أوقاته في الكدح لحياته، فإذا بقيت لهم ساعة من فراغ كانت على كواهلهم عبئاً لا يألون جهداً في الخلاص منه. يا للإنسان ما أنكد حظه! وهم ما عدا ذلك على شيء من الشهامة والكرامة.

يحدث أحياناً أن أنسى نفسي فأشاطرهم ما بقي للإنسان من متع العيش، كالالتفاف حول مائدة يحفها الإخلاص والوفاء، والخروج في مركبة إلى نزهة خلوية والاجتماع في مرقص يقام لمناسبة داعية، فأجد بتلك الملاهي روحاً(32) ومسرة ما دمت في ذهول عن نفسي، فلا أذكر أن لي قوى متعطلة أصدأها الإخلاد إلى التبطل والاستنامة إلى الراحة، وأصبح سترها عن الناس واجباً مرعياً. أواه! لشد ما ينقبض لذلك صدري ويلتاع فؤادي! على أن حظي وحظ أمثالي أن نعيش في هذه الحياة مجهولين غير مفهومين.

وا ويلتاه! لمَ فجعني الموت، في صديقة صباي ولماذا عرفتها؟ لقد كنت أقول لنفسي وهي ترتاد لها حبيباً: «يا حمقاء! إنك تطلبين محالاً وتتبعين خيالاً» فلما لقيتها وجدت ذلك الحبيب وعرفته. وشعرت أن بقربي قلباً كريماً ونفساً نقية كنت وأنا معها أجدني أطيب عنصراً وأخلص جوهراً من ذي قبل، لأني كنت كل ما أستطيع أن أكون. يا الله! وهل كانت قوة من قوى نفسي وحسي لا تجد إذ ذاك عملها؟ ألم أكن أمامها أستطيع أن أبسط تلك الحاسة العجيبة التي أستوعب الطبيعة بها وأفهمها؟ ألم تتساقط(33) أعذب الأحاديث الجامعة بين العواطف الرقيقة والأفكار الدقيقة؟ تلك الأحاديث المصرَّفة(34) المطبوعة بطابع الذكاء والعبقرية حتى في سُفهِها ومجونها؟ أما الآن فواحَرَّ قلباه! إن السنين التي

تزيدها عليَّ في العمر عجلت بها إلى القبر! فهيهات أن أسلو تلك الفتاة الوقورة الصبورة! ومحال أن أنسى تلك النفس المحتسبة السمحة!

لقيت منذ أيام فتى أصحر(35) القلب وضَّاح المُحيَّا يدعى «ن» لا يزال حديث عهدٍ بالجامعة. وهو وإن لم يعدّ نفسه في العلماء يعتقد أنه أعلم من غيره. وقد لاحظت مراراً أنه يحسن الانتفاع بوقته، وأنه على حظٍّ من العلم والأدب غير قليل.

لم يكد العلم أني أحسن التصوير وأجيد اليونانية (وهذان شيئان غريبان هنا) حتى سعى إلى معرفتي وأخذ ينفض إلي جملة علمه ويخرج دفائن صدره: من «باتو» إلى «وود»، ومن «بيلس» إلى «ونكلمان»، وأكد لي أنه استوعب الجزء الأول من «نظرية الفنون الجميلة» لمولزر. وأن تحت يده مؤلفاً مخطوطاً في موضوع الفن القديم «لهين»؛ فتركته يعبّ عبابه دون مراجعة ولا مقاطعة.

كذلك عرفت نائب الأمير وحاكم البلد وهو رجل طاهر القلب سري الخلق حر الضمير. وقد يقال إن منظره بين أطفاله التسعة ليملك القلب ويستهوي الخاطر. والناس يهتفون(36) بأبنائه، ولكنهم يخصون بنته البكر بالثناء والإعجاب. دعاني إلى زيارته فلبَّيت. وسأزوره بكرة الغد. إنه يقطن منزل صيد للأمير على فرسخ ونصف من المدينة استأذن المالك أن يلجأ إليه عقب وفاة امرأته فراراً من الإقامة في بيت فجع فيه بشريكة حياته ومسكن نفسه.

لقيت عدا مَن ذكرت أنماطاً غريبة من الناس كلّ ما فيهم غير محتمل، ولا سيّما تلك الجمل الجوف التي يزوّرونها(37) بين يديَّ تأكيداً لصداقتهم، وتأييداً لمودّتهم!

تلك يا صديقي رسالة قصصية ستعجبك وتطربك. وإني أستودعك اللّه.

22 مايو

يرى بعض الناس أن الحياة حلم. وذلك ما أراه وأسمع صداه في كل مكان. كلما رأيت أن قوى الإنسان العاملة العاقلة محصورة في حدود ضيقة، وأن جهدنا الجاهد لا نصرفه إلا في قضاء حاجاتنا وإمضاء رغباتنا، وما لهذه الحاجات ولا تلك الرغبات غاية غير تطويل هذه الحياة الحقيرة، وكلما تحققت أننا لا نستطيع أنّ نريح أفكارنا ونرضيها بالاطمئنان إلى الحق الصراح في مسألة من المسائل، بل نرفّه عنها بتسليمٍ وإذعانٍ مصحوبين بأحلام وأوهام، كالسجين يحصره الظلام والقيد فينقش على جدران سجنه صوراً زاهية وأشكالاً زاهرة؛ كلما خطرت لي هذه الخواطر أقف أمامها مشتركاً مشدوهاً(38) لا أحير جواباً ولا أعرف صواباً!

ثم أرجع إلى نفسي فأجدني منطوياً على عالم آخر أشبه بهذا العالم الخارجي، يقوم على المشاعر المتوقعة المبهمة، والرغائب المشتبهة الغامضة، دون الصور البيِّنة والحقائق الواضحة. حينئذ تمر الأشياء أمامي خفّاقة طافية تكسوها أغطية كثيفة من السحب، فأواصل السير خلال هذا العالم باسماً حالماً.

أطبق(39) علماء التربية على أن الأطفال لا يعلمون لما يريدون سبباً. ولكنك إذا قلت لهم إن الرجال كالأطفال يسيرون في هذه الأرض خبط عشواء بأقدام زلقة، وأحلام قلقة، لا يعرفون لوجودهم ورداً ولا صدراً، ولا يدرون لعلمهم غاية ولا غرضاً، وإنهم كالأطفال يساسون تارة بالحلوى وتارة بالعصا، أكبروا هذا القول وجعلوه دبر(40) آذانهم؛ مع أن الواقع يؤيده، والحواس تدركه!

أوافقك ـ لأني أعلم ماذا سيكون ردّك ـ على أن أسعد الناس أولئك الذين هم كالأطفال يذهلون عن الماضي ويغفلون عن المستقبل ولا يفكرون إلا في الحاضر. يهدهدون(41) عرائسهم الخشبية ويلبسونهن حللهن مرة وينضونها عنهن أخرى. ويطوفون حول خزانة الحلوى بإجلال وهيبة؛ حتى إذا نفحتهم أمهاتهم ما يرغبون التهموه ملء أفواههم ثم صاحوا قائلين: «نريد أيضاً». هؤلاء سعداء بلا ريب. ومثلهم أولئك الذين ينحلون(42) أعمالهم الحقيرة وآمالهم الباطلة العناوين الضخمة والمظاهر الفخمة، ويقنعون الناس بذلك

التمويه والتلبيس أنها أعمال جسيمة تكفل للإنسان سعادة النفس ورغادة العيش وزينة الحياة. طوبى لمن استطاع أن يكون كذلك! ولكن الرجل الذي ينظر ساكناً خاشعاً إلى عقبى هذه الأشياء، ويرى بإحدى مقلتيه ذلك الحضري المترف يجعل من جنينته الصغيرة جنَّة كبيرة وهو مبتهج جذل، ويلحظ بالأخرى ذلك البائس الفقير يمشي دائباً تحت عبء الشقاء، متساقطاً من الأين(43) والإعياء وهو مستسلم صابر، وكلاهما يطمح إلى أن يرى نور الشمس ولو دقيقة فوق عمره؛ ذلك الرجل يعيش رخيّ البال سابحاً في عالم قد خلقه من نفسه لنفسه بنفسه. وهو أيضاً سعيد لأنه رجل. ومهما تكن الحوائل التي تصده وتعوقه، فلا ينفك حافظاً في قلبه أعذب الشعور بأنه طليق، وأنه يستطيع متى شاء أن يخرج من هذا السجن العميق.

26 مايو

أنت تعلم منذ بعيد مذهبي في السكنى إذا طابت لي الإقامة واطمأن بي المنزل: انتبذ مكاناً خلياً فأخيم به، ثم أعيش عيشة قانعة متواضعة. ولقد وجدت هنا محلّة صغيرة سحرني جمالها، وسرّني انعزالها.

على نحو فرسخ من المدينة تقوم على إحدى الرُّبى الجميلة دسكرةٌ(44) تدعى وَلهِم(45) لا تقع العين على مثلها في جمال الموقع وطيب الموضع. وإذا صعدت في الطريق الذاهب إليها أخذت عينك منظر الوادي بنظرة واحدة. في هذه القرية حانوت صغير لامرأة ذات مروءة ونشاط تبيع فيه النبيذ والبيرة والقهوة. وأجمل ما تراه هناك شجرتان من شجر الزيزفون تغطيان بأفنانهما المتهدّلة الساحة الصغيرة الواقعة أمام الكنيسة، وقد أحاطت بهما أكواخ القرويين وأهراء(46) الغلال من كل جانب.

تحت هاتين الشجرتين وجدت ذلك المكان المنعزل الخالي، فنقلت إليه من الحانوت كرسياً ومنضدة وأقمت به أشرب القهوة على أشعار هوميروس.

قادتني المصادفة إلى هاتين الشجرتين في عصر يوم جميل، وكان الحيّ خلواً من أهله، والفلّاحون يعملون في الحقول، فلم أرَ إلا غلاماً في عامه الرابع قد أجلس رضيعاً في شهره السادس بين ركبتيه، وضمّه إلى صدره بذراعيه، وهو ساكن الحركة مطمئن الجلسة على حدَّة نظراته وسرعة لفتاته. راقني هذا المنظر القروي، وسرني هذا المنظر الأخوي، فجلست تلقاءه على محراث وأخذت أرسمه.

أضفت إليه السياج الملاصق، وباب مخزن من المخازن، وبعض العجلات المحطمة، كلاً على حاله؛ ثم نظرت بعد ساعة فيما صنعت فإذا بي قد رسمت صورة رائعة دون أن أزيد عليها شيئاً من عندي. فوطد ذلك عزمي على أن أقف عند الطبيعة لا أجاوز سيرها، ولا أستمد غيرها، فهي المنجم الذي لا ينفد، والمنبع الذي لا ينضب. وهي التي تخلق نوابغ الفن وتلهمهم أسرارها.

إن لقواعد الفن محاسن يعرفها لها كل الناس كما يعرفونها لقوانين المجتمع. فالفنان(47) الذي يأخذ نفسه بتلك القواعد لا يأتي عملاً محالاً فِعله ولا رديئاً كله. كذلك الرجل الذي يجري على منهاج الأدب ويسير على أنظمة المجتمع لا يكون جاراً ثقيلاً ولا شقياً شريراً. ولكن مهما يثقل فإن القواعد تجني على الطبيعة: تفسد عاطفتها الصالحة، وتبهم عباراتها الواضحة. ستَرميَنَّ بالجور والمبالغة وتقول إن القواعد تضع الحدود المناسبة، وتشذّب الغصون الزائدة، وهلمّ جرّا: ولكني أقرّب الأمر إليك بالتشبيه: الفن والحب سبيلهما واحدة وأمرهما متفق. فلو أن شاباً فتي القلب تيّمه حب غادة فأنفق على حديثها ساعاته، وقصر عليها ملَكاته(48) وممتلكاته، ليدلها على أنه وهبها فؤاده. وملكها قياده، ثم جاءه مدني متحذلق(49) وقال له: «سيدي! إن الحب توجبه الإنسانية، وتقتضيه الطبيعة البشرية؛ ولكن جمل بك أن توفق في الحب بين عقلك وقلبك. قسم زمانك، فاجعل ساعات العمل نصيبك، وخص بساعات الفراغ حبيبك. ثم احسب دخلك وخرجك، فإذا فضل بعد نفقتك شيء فلا أمنعك أن تطرف غادتك ببعض التحف على شرط أن تقصد في ذلك وتقصره على ذكرى ميلادها أو يوم عيدها».

لو أن هذا الشاب ألقى سمعه إلى هذا الناصح وأخذ برأيه لأصبح نابغاً خطيراً، ولاخترته أن يكون لأحد الأمراء مديراً، ولكنه يقتل حبه إن كان عاشقاً ويفسد قريحته إن كان فناناً.

قفوا أسائلكم يا أخلائي وصحبي! ما لسيل القرائح لا يفيض إلا قليلاً؟ ولم لا ترونه يندفع فيبهر النفوس الدَّهِشَة الحائرة باصطخاب أمواجه وجرجرة أواذيه؟ أليس ذلك لأن سادَتنا أولي(50) الأذهان الساكنة الفاترة قد عرسوا(51) بشاطئيه ووقفوا يرصدون له الأهبة، حتى إذا خشوا منه أن يفيض فيدمر المساكن ويحطم أعواد السوسن ويخرب البساتين، عاجلوه بالحواجز وعالجوه بالثقوب ليهدئوا ثائرته ويأمنوا غائلته؟

17 مايو

أراني قد استرسلت في حميّا الاستعارة واستغرقت في سورة(52) الخطابة حتى نسيت أن أقصَّ عليك خاتمة أمري مع الطفلين. وذلك أني لبثت ساعتين جالساً على المحراث وقد استولى عليَّ انفعال غريب يعرفه الشاعر والمصور. وحاولت أن أصفه لك في رسالة الأمس فجاء الوصف مهلهلاً سقيماً. فلما كادت الشمس تؤوب أقبلت مع إلى الطفلين امرأة في رونق الشباب على ذراعها سلة ـ وكان الصبيّان لا يزالان على حالها من السكون والدعة ـ فهتفتْ بالكبير «فيليب» وأثنتْ على شهامته ورزانته، ثمَّ حيَّتْني فردَدت التحية، ونهضت فدنوت منها وسألتها أهي أم هذين الغلامين الجميلين؟ فقالت: نعم. وناولت الأكبر نصف رغيف وحملت الأصغر بين ذراعيها وقبلته قبلة لا تخرج إلا من بين شفتي أم. ثم قالت: «تركت الوليد في رعاية فيليب وذهبت مع ولدي البكر إلى المدينة نبتاع خبزاً وسكراً ومقلاة من الخزف ـ وكان كل ذلك في السلة رأيته حين سقط غطاؤها ـ وسأصنع الليلة حساءً لذيذاً ليحيى (اسم الوليد)، أما المقلاة فهي بدلٌ من التي كسرها بالأمس ولدي البكر الطائش عقب شجار بينه وبين فيليب المسكين على قديح(53) المرق». فسألتها أين غادرت ولدها البكر؟ فلم تكد تقول إنه كان يركض وراء الأوز في المرج حتى رأيته مقبلاً يعدو وفي يده قضيب من شجر البندق أتى به إلى أخيه الأصغر.

مضيت في الحديث مع هذه المرأة فعلمت أنها بنت معلم القرية، وأن زوجها سافر إلى سويسرا ليحصل على نصيبه من تركة ابن عم له. قالت: «إن بعض الناس حاولوا أن يخرجوه من الميراث وقد راسلهم فما أجابوه، فآثر أن يشخص إليهم بنفسه. وقد انقطع علم ما بيني وبينه. فعسى أن يكون خيراً ما حبس عني رسائله!».

تركت هذه الفتاة البرة على أسف من فراقها بعد أن ناولت كلاً من بنيها «كرتزر»(54) وأعطيتها نصيب الوليد لتشتري له خبزةً متى ذهبت إلى المدينة.

لا أكذبك يا صديقي، فلقد أكون وعقلي مسبوه وفكري مشرد ونفسي مبلبلة، فما ينفس عني غير أمثال هذه المرأة التي تضطرب في دائرة حياتها الضيقة هادئة القلب سعيدة النفس، وتعيش في يومها غير عابثة بغدها، وترى أوراق الشجر تتساقط وتتناثر فلا تفهم من ذلك غير دنوِّ الشتاء!

ومنذ ذلك اليوم كثر اختلافي إلى هذا المكان فاسترسل الأطفال بأسنهم إلي، ورحت أعطيهم من السكر عندما أشرب القهوة وأقاسمهم في المساء الخبز والقشدة، فإذا جاء يوم الأحد أخذ كل منهم (كرتزرة)، وإذا لم أكن وقت الصلاة هناك قام بذلك التوزيع ربة الحانوت على أمرٍ مني.

أحبب إلى نفسي بذلك الأنس والعطف من تلك القلوب الطاهرة الكريمة! وما أسعدني بما أسمع من أقاصيصهم المختلفة وبما أرى من غيرتهم المحبوبة التي تتجلى خلال أهوائهم الطفلية وسذاجتهم الفطرية متى رأوا صغار القرية يجتمعون حولي!

ولشد ما أعاني في تهدئة بال الأم كلما خشيت أن يضايق أطفالها السيدا!

20 مايو

ما قلته لك آنفاً عن التصوير يقال ولا شك عن الشعر أيضاً، فإن موضوعهما تعرّف الجمال والقدرة على تعريفه. ذلك وهو الحق لفظ قليل فيه معنى كثير.

شاهدت اليوم منظراً من رواية الحياة لو نُقل عن حاله، ومثل على جماله، لكان أجمل منظرٍ غزليٍّ في العالم. ولكن ما نفع كلمات الشعر والغزل والمنظر في هذا الموضع؟ أمن الضروري أن نعمد إلى جمال الصناعة وزخرف القول كلما أردنا أن نشرح منظراً من مناظر الطبيعة؟

إذا رجوت أن تعلم بعد هذه المقدمة شيئاً عظيماً فخماً فقد خدعتك نفسك وكذبك حدسك. فإنه لم يملك عليّ نفسي، ولم يثر كامن حسي، غير فلاح قروي ساذج! سأقص عليك الأمر على عادتي بالقصور والعي. وسترميني أنت على عادتك بالإسهاب والغلو. إنها وِلْهَم أيضاً، وما برحت وِلْهَم مصدر ذلك الجمال ومنبع هذا السحر.

تفيأت جماعة ظلال الزيزفون ليشربوا القهوة فثقل خلاطهم على طبعي، فتذرعت بحيلة وانتبذت عنهم ناحية، فرأيت فتىً قروياً قد خرج من أحد البيوت المجاورة إلى المحراث الذي كنت أرسم فوقه منذ قليل وأخذ يصلح شيئاً فيه.

راقتني صباحة وجهه فدانيته وبدأته الحديث مستفهماً عن حاله وشأنه. فلم يكن غير قليل حتى تم التعارف وزالت الكلفة واستفاض الحديث، كدأبي من أهل هذه الطبقة الكريمة. حدثني أنه في خدمة أرملة حدبة(55) عليه رفيقة به. ثم أفاض في الحديث عنها معلناً مفاخرها معدداً مآثرها، حتى ما شككت في إخلاصه لها قلباً وقالباً. وكان من قوله إنها ليست شابة، وإن ما لاقته في زواجها الأول من نكد العيش ومضض الخلاف صرفها عن الزواج ثانية. ولقد تبينت من خلل حديثه أنه يراها بارعة الجمال فتانة المحاسن، وأنه يود لو تختاره زوجاً ليبسط من جبينها غضون الشقاء الأول.

ما أحوجني إلى أن أعيد عليك ما قاله كلمة كلمة لتشعر بولائه ووفائه! وما أفقرني إلى مواهب الشاعر الملهم لأصور لك صورة حية من إشارة حركاته، ورخامة نغماته، وتوقد نظراته! هيهات! ليس في مقدور اللغة أن تعبر عن هذا الحنان الذي تنم عنه سحنته وهيئته. ومهما أحاول فلن آتي إلا بكلام غليظ على الطبع، ثقيل على السمع. وأشد ما أثّر فيّ خوفه أن أسيء الظن بتصرف هذه المرأة أو أشك في علاقته بها. لله ما أجمل أن تسمعه يتكلم عن ملامح وجهها، ومقاطع جسمها، ذلك الجسم الذي تبله(56)! لا أستطيع أن أعيد ذلك إلا

على نفسي، ولا أردده إلا في أعماق صدري، فإني لم أر قبل اليوم هوىً محرقاً وشوقاً مبرحاً يحدوهما العفاف ويكنفهما الطهر. بل ما كنت أتصور اجتماع ذلك حتى في الحلم!

لا تلمني إذا قلت لك إني ما ذكرت هذه العاطفة الخالصة البريئة إلا شعرت بنار تتسعر في أحشائي، وتتمشى في أعضائي. إن صورة هذا الحنان الصادق لا تزايل بصري ولا تترك أثري. وكأني أصبحت فريسة لمثل تلك النار الكامنة، فأنا أذوي وأموت. سأحاول ما استطعت زيارة هذه المرأة. ولكن لا. إن خيراً من ذلك أن أجتنب زيارتها وألّا أراها إلا بعين حبيبها. فلعلها تكون في ناظري أقل منها في خاطري! وما أربي(57) أن أعمد إلى صورة جميلة تنازعني إليها نفسي فأعبث بها وأشوهها؟

16 يونيو

تسألني ما بالي لا أكتب إليك؟ وقد كنت تقدر وأنت في عداد العلماء أن تحزر أني سعيد، وأني... بالاختصار عرفت فتاة أخذت بمجامع قلبي، واستأثرت بخالص حبي.

سأكلف نفسي خطة شديدة إذا التزمت أن أقص عليك أمر اتصالي بهذه الفتاة على اطّراد وتساوق.

أنا مثلوج الصدر سعيد، إلا أنني مؤرخ غير مجيد. إنها ملاك كريم... أف! ما غناء(58) هذا القول؟ كلٌّ يقول ذلك عن حبيبه. إنه لا سبيل إلى أن أصف لك مقدار جمالها، ولا أن أذكر سبب كمالها. وقصاراي أن أقول لك إنها ملكت مشاعري وذهبت بفؤادي كل مذهب.

قل ما شئت فيها من سذاجة في رجاحة عقل، وشفقة في قوم حزم، نفس صافية فاضلة، في عيشة راضية عاملة.

كل ما أقوله لك عنها ليس إلا هراءً مملاً أو إيجازاً مخلّاً، لا يؤدي إلى ذهنك معنى من ذاتيتها ولا هويتها. في مرة أخرى... ولكن لا. مالي وللمرة الأخرى؟ سأقص عليك حديثها الآن، فإنه إن لم يكن اليوم فلن يكون أبداً. ذلك لأني ـ ولا أكذبك ـ منذ بدأت الكتابة هممت

ثلاث مرات أن أضع القلم وأسرج الجواد لأذهب إليها. مع أنني آليت لألزمن بيتي سحابة هذا اليوم. وهأنذا أطلع من النافذة كل لحظة لأرى الشمس على أي ارتفاع في الأفق...!

لم أستطع البِرَّ بيميني، فقد كانت زيارتها أمراً لا محيد عنه! وهأنذا بعد العودة أكتب إليك.

أيُّ شيء أبهج للنفس وأملَكُ للوجدان من رؤيتها شمساً لدارة(59) أخوتها الثمانية من بنات وبنين يتألق في جباههم ضوء البشر، وتقرأ في وجوههم آية اللطف؟ إذا مضيت في الحكاية على هذا النحو خرجت منها ونهايتها في ذهنك كبدايتها. ولكن لا بأس! سألزم نفسي أن أجيئك بالحديث على سرده.

كتبت إليك منذ زمن أنّي تعرفت إلى الحاكم «س». وأنه دعاني إلى زيارته في صومعته، أو بالحري في مملكته. فشغلتني الشواغل عن هذه الزيارة. وما كنت لأفكر فيها لولا أنّ المصادفة كشفت لي عن الكنز المدفون في هذا المكان المنعزل. وذلك أنّ شبابنا أقاموا مرقصاً في الريف فطابت نفسي إلى حضوره، ورضيت أنْ أكون مراقصاً لفتاة من فتيات المدينة ظريفة الطبع كريمة الخلق، إلا أنها غير جذّابة ولا خلّابة. وكان اتّفاقنا على أن أحتال مركبة تقلني أنا ومراقصتي وابنة عمها إلى الحفل؛ ثم نعرج في طريقنا على الآنسة شرلوت س. فنحملها معنا.

انطلقت بنا المركبة تؤم بيت الصيد حيث يسكن الحاكم. وبينما هي تسير في غاب مظلمة قالت لي رفيقتي: إنك ستتعرف الآن إلى فتاة فنانة. وقالت ابنة عمها: لا تمن نفسك بها، ولا تطع قلبك في حبها. فقلت لها: ولماذا؟ قالت: إنها مخطوبة لفتى كريم اضطره موت أبيه إلى أن يسافر فينظم أموره ويلتمس له وظيفة سامية. فسمعت هذه الأشياء وعلمتها دون أن أحفل بها أو أكترث لها. ثم واصلنا المسير حتى وقفت العربة على باب الفناء. وقد كادت الشمس تتوارى خلف الجبل، وكان الحر يقطع الأنفاس ويزهق النفوس، والسحاب المتراكم المربد(60) يطرز حواشي الأفق؛ فهفا(61) قلب السيدتين فزعاً من دنو العاصفة. فادعيت علم الظواهر الجوية لأحل عن قلبيهما عقدة الخوف. ولا أكذب والله فقد تنازعتني الشكوك وقام في نفسي أن لهونا سيقصر، وأن صفونا سيكدر.

نزلنا من المركبة وجاءت خادمة إلى الباب ترجو منا أن ننتظر الآنسة شرلوت هنيهة فإنها لا تلبث أن تجيء. أجزت(62) الفناء وصعدت السلم الخارجي ووضعت قدمي على وصيد(63) الباب فإذا منظر ساحر لم يقع طرفي على أتمَّ منه جلالاً وروعة! رأيت في الدهليز ستة أطفال تتراوح أعمارهم من سنتين إلى إحدى عشرة وقد أسرعوا إلى الغرفة الأولى وتجمعوا حول فتاة لطيفة التكوين مربوعة القامة عليها ثوب ساذج أبيض تجمّله عقد وردية على ردنيه(64) ومنطقته.

وكان في يدها رغيف أسمر تقطعه دوائر لكل طفل قطعة تناسب سنه وقابليته، ثم تعطيه إياها بوجه منطلق وصدر منشرح، فيأخذها بيده الصغيرة وقد مدَّها طويلاً قبل أن يقطع الخبز ـ ويصيح بملء فمه: «شكراً شكراً!» ثم انصرفوا فرحين بما أوتوا، بعضهم يطفر(65) فرحاً، وبعضهم يمشي سُجحاً(66) وكلهم متجهون إلى باب الفناء ليروا الأجانب، ولينظروا المركبة التي ستقلّ عزيزتهم شرلوت.

أقبلت الفتاة، وكان أول ما قالت: عفواً يا سيدي عن تحميلك مؤونة النزول، وتكليف السيدتين مشقّة الانتظار، فقد أنستني هندمة لباسي وبعض أوامر منزلية تقتضيها غيبتي أنْ أعصِّر(67) الأطفال، وهم يأبون إلا أن يتناولوا عصورهم من يدي.

فحيَّيتها تحية عادية لا روح فيها ولا معنى. فإن نفسي بأسرها كانت مأخوذة بسحر محياها ورخامة صوتها وجمال هيئتها. ولم أكد أخرج من دهشتي وأصحو من سكرتي حتى رأيتها ذاهبة إلى غرفتها لتأتي بقفازها ومروحتها. ورأيت الأطفال على بعد ينظرون إلي من طرف خفي، فدنوت من أصغرهم سناً وأبلجهم غرة فنكص على عقبيه، وكانت أخته إذ ذاك خارجة من المنزل فقالت له: نويس! مد يدك إلى ابن عمك. فمدّ الصغير يده إليَّ فلم تمنعني وساخة وجهه وقذارة أنفه من أن أقبّله بقلبي وشفتي. ثم قلت لشرلوت وقد مددت يدي إليها: ابن عمه؟ أتحسبينني أهلاً لأن أعد من أقربائك؟ فقالت وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة خبيثة: إن لنا كثيراً من أبناء العم فرقتهم عداوة الدار(68)، ومن الصعب علي أن أظنك شراً من هؤلاء جميعاً!

ولما همت بالخروج أوصت أختها صوفيا وهي طريدتها(69) في العمر أن تكلأ(70) أخوتها وتقرأ على أبيها السلام لدى عودته من نزهته، ثم أمرت الأطفال أن يلقوا إلى أختهم بالطاعة فينقادوا لها ويحلوها منهم محلها. فكلهم صدع بالأمر إلا بنية شقراء في السادسة من عمرها قالت لشرلوت بلهجة المتعاظم: «إنها مع ذلك ستكون سواك: وإن حبنا لك لأشد».

خرجت بها إلى المركبة فإذا أخواها الأكبران فقد تسلقاها، فرجوت من شرلوت أن تسمح لهما أن يصحبانا حتى مدخل الغابة فقبلت بعد أن وعداها الوقار والسكون. ولم يكن إلا ريثما أخذنا مجالسنا من المركبة وتبادلت السيدات جمل المجاملة، ولاحظن بعض الشيء على هندامهن وقبعاتهن، وتناولن بالنقد جميع المدعوات في الحفل حتى أوقفت شرلوت الحوذي وأنزلت أخويها. فرجوا منها أن تعطيهما يدها ليقبلاها، فقبلها الأول قبلة الشاب الحنون الرشيد، وقبلها الآخر قبلة الصبي الأهوج الغرير، وحملتها عبارات اللطف والحنان إلى من تخلف في البيت من إخوتها. ثم استأنفنا المسير وأخذنا بأطراف الأحاديث، فقالت ابنة العم لشرلوت: «هل قرأت الكتاب الذي بعثت به إليك؟ فقالت: كلا. إنه كسابقه لا يروقني، وإذا شئت رددته إليك» فسألتها ما شأن هذين الكتابين؟ فأدهشني جوابها أنهما من تأليف(71)... ووجدت في كل ما قالت غرابة وشذوذاً.

كنت ألمح في كل كلمة من كلماتها معنى طريفاً من معاني السحر، وفي كل سرار من أسارير وجهها شعاعاً جديداً من أشعة الذكاء. وكان البشر ينهال في غرتها كلما علمت أن كلامها لم يند عني منه حرف. قالت: كنت وأنا صغيرة لا يلذ لي غير القصص. واللّه يعلم كم كنت أسرّ حينما أجلس وحدي يوم الأحد فأشارك «مس جاني» وأمثالها في النعمى والبؤسى. لا أنكر أن لهذا الضرب من الكتب لذة وجمالاً، ولكني أؤثر أن يكون ما أطالعه مفيداً رشيداً ما دمت لا أجد للقراءة من الفراغ إلا يسيراً. يعجبني المؤلف الذي أجد فيه عالمي الذي ألفته، على شرط أن يشعرني كتابه بما في حياتي العادية الخاصة من تأثير وإخلاص وصداقة، ويحملني على أن أرى فيها أسباب السعادة ومنبع الغبطة دون أن يرفعها خياله إلى مستوى الفردوس.

حاولت أن أخفي ما أثارته في قلبي تلك الكلمات الأخيرة. ولكنني لم أقو على كتمه طويلاً، فإنني حين سمعتها تتكلم عرضاً عن «نائب وكفييلد» تأليف(72)... بلسان صادق وفكر صائب لم أتمالك أن بحثُ لها بما في نفسي.

وجهت شرلوت الحديث إلى السيدتين بعد أن استأثرنا به حيناً وقد لبثتا أثناء المناظرة صامتتين، عيونهما شاخصة وثغراهما مفغوران. ولطالما نظرت ابنة العم إلي نظرة الهازئ الساخر فلم أشغل بذلك فكري. ترامى بنا الحديث إلى لذة الرقص فقالت شرلوت: إذا كان الرقص نقيصة فأشهد اللّه أني له محبة وفيه راغبة. وإذا نزت في الرأس نزوة الهمّ لا يسليها إلا أنّ أعمد إلى بياني(73) المصدوع فأعزف عليه لحن «الكنتردنس».

بينما كانت تتكلم كنت أنعم بالنظر إلى عينيها الدعجاوين، وأشعر أن نفسي تترامى على شفتيها القرمزيتين وخدها الأسيل النضر. وأعجب الأشياء أني كنت ثمِلاً بسلافة(74) حديثها، معجباً بنبالة معانيها، دون أن أسمع ألفاظها التي تؤديها. تستطيع أن تتصور ذلك أنت لأنك تعرفني. وجملة القول إننا بلغنا منزل الرقص ونزلت من المركبة كأني صحوت من حلم. وقد كنت تائهاً في عالم الخيال غريقاً في بحار الفكر فلم أفطن إلى نغمات الموسيقى وهي خارجة إلى أسماعنا من قاعة متلألئة الأضواء، بديعة الرونق والبهاء!

جاء يستقبلنا لدى الباب الأكبر فتيان يدعى أحدهما أدران وأما الآخر فلا أذكره؛ وكانا مراقصي ابنة العم وشرلوت، فأخذا بذراعيهما وصعدت خلفهما بمراقصتي.

ثم أخذنا في الرقص، فرقصنا بادئ ذي بدء رقصة «المينويت» مراراً، ودعوت السيدات واحدة فواحدة فما نقض(75) مرة صبري غير تلكؤ القبيحات الكالحات في مد أيديهن إليّ حتى نفرغ من هذه الرقصة.

أخذت شرلوت ومراقصُها يرقصان رقصة إنجليزية وليس يدري إلا اللّه مقدار سروري حينما جاءت نوبتنا فدخلت في الرقص معها!

يجب أن تراها وهي راقصة: إنها تقبل بقلبها ونفسها على الرقص، وتترك جسمها يموج ويميد في انسجام وانتظام، وترى حركاتها حرّة طليقة، ولفتاتها سريعة رشيقة، فلا تشكّ في أنّ الرقص خُلِقَ لها فلا تفكّر إلا فيه ولا تشعر إلَّا به، وأن كل شيء في هذه اللحظة قد فني في خاطرها وناظرها. دعوتها للرقصة الثانية فأبت إلا الثالثة، وصارحتني بكلمات هن أندى على الأفئدة من زلال الماء، قالت: «إني أحب الرقصة الألمانية، وقد جرت عادة قومنا ألا ترقصها السيدة إلا مع مراقصها؛ وقد علمت أن مراقصي لا يحسنها، وسيشكر صنيعي إذا أعفيته منها. كذلك حال مراقصتك لا تجيدها ولا تريدها. أما أنت فقد راقبتك حين رقصت الإنجليزية فوجدتك رشيق الحركة ماهر اللفتة. فاذهب إن رأيت إلى مراقصي فاطلب إذنه؛ وسأذهب إلى مراقصتك فأستنزلها عنك».

قبلت في مثل ارتداد الطرف. وقد كان مفهوماً أن يلازم صاحبها صاحبتي أثناء رقصنا فيجالسها ويؤانسها.

بُدِئَ الرّقص فمهَّدْنا له بحركات الأذرع المختلفة، وشاهدتُ من لباقتها ورشاقتها ما ملأ القلب دهشةً وعجباً. فلما تغيَّر اللّحن أخذَ بعضُنا يدور حول بعض دوران القمر حول الأرض، فنجم في أول الرقص عن ندرة الماهرين في الراقصين اضطراب وفوضى، فقابلنا ذلك بالحكمة والحزم، وتربصنا(76) بالقوم حتى انكسرت سورتهم(77) وقرَّت فورتُهم، وخرج جمهور العاجزين عن الحلقة فلم يبق غيرنا وغير زوج آخر هو أدران ومراقصته.

لم أكُ في حياتي أنشط جسماً ولا أخف حركة منِّي اليوم، حتى ما كنت أحسبني إنساناً! آخذ بين ذراعي أجمل مخلوقة في الناس، وأدور بها في مثل لمح البرق، وأرى كل شيء مما يحيط بنا يزول ويفنى! وأشعر… أقول لك بصراحة يا وليم إني أؤثر أن أموت على أن ترقص الفتاة التي أهواها وأرعاها هذه الرقصة مع غيري.

رقصنا رقصات خفيفة ونحن ماشيان في القاعة لنرفه عن نفوسنا. ثم عدنا فجلست، وذهبت أنا إلى برتقالتين كنت ادخرتها وليس في المقصف غيرهما فقطعتهما أرباعاً ثم

ناولتها إيّاها فزاد ذلك في سرورها غير أني كنت أحس خنجراً يخترق فؤادي كلما رأيتها مضطرة إلى أن تعطي بعض الحمقى من جاراتها قطعة منها.

وفي الرقصة الإنجليزية الثالثة كنا ثاني زوج، فمضينا في أثر الراقصين نرسم خطوطاً مختلفة، وجسمي معلّق بذراعيها وقلبي مفتون بعينيها الفائضتين بالبشر الخالص والعفاف المحض، حتى حاذينا امرأةً نصفاً تستهوي الأبصار ملاحة وحسناً؛ فنظرت إلي شرلوت باسمة وأشارت إليها مهددة، ولفظت مرتين اسم ألبير بهيئة ذات معنى وهي مارة بنا على عجل. فقلت لشرلوت: هل أنت مخبرتي من ألبير هذا إذا لم يكن في الأخبار عنه ما تكرهين؟ فهمّت بالجواب لولا أن انفصلنا مجبرين لننتظم في السلسلة الكبيرة. ولما تقابلنا وجدتها ساهمة مفكرة، فأخذت بيدي وخرجنا نستروح النسيم ثم قالت: «لماذا أكتم الأمر عنك؟ إن ألبير فتى ظريف قد وعدوه أن أكون له خطيبة».

لم يكن هذا الخبر جديداً على مسمعي، فإن المرأتين حدثتاني به في الطريق؛ ولكنه الآن وقع مني موقع الخبر الجديد، لأني ما فكرت حين سمعته أنه يتصل بتلك التي أصبحت في وقت قصير أحب الناس إلي وأعزهم علي. لا أطيل عليك فقد ذاب قلبي كما يذوب الثلج في الحر، ودار رأسي حتى كدت أخرّ إلى الأرض، فأخللت نظام الرقص وهوشت ترتيب الصف، وكاد الأمر يسوء لولا أن شرلوت لحضور ذهنها وذكاء فهمها جذبتني جذباً فعاد النظام كما كان بسرعة.

أخذ البرق يشتد وميضه ويتتابع قبل نهاية هذه الرقصة. وقد رأينا سناه(78) منذ طويل يلمع في سواد الأفق فما كنت أشك في أنه برق خلب(79). وزاد قصف الرعد حتى حجب عنا صوت الموسيقى. فاضطربت الحواس ورهبت القلوب وخرج ثلاث نسوة من الصف هاربات وتبعهن مراقصوهن. ولم يكُ غير قليل حتى عمّت الفوضى وكفّ العازفون.

من طبيعة الإنسان إذا بغَتَهُ حزنٌ أو خوفٌ في خلال مسرّته أن يكون تأثيره فيه أشد منه في كل وقت. ذلك لشدة شعوره بالضد. أو لأن مشاعره وهي هائجة ثائرة تكون أقوى تأثُّراً وأشدَّ انفعالاً.

لهذين السببين أعزو ذلك التقطيب الغريب الذي بدا فجأة على أوجه كثير من أولئك النسوة.

جلست أعقلهن في إحدى زوايا القاعة وأدارت ظهرها إلى النافضة وأسدلت على أذنيها حجاباً. وجاءت أخرى فجثت بين يديها وخبأت رأسها بين ركبتيها. وأقبلت ثالثة فدخلت بين أختيها وقبلتهما ثم انهلّت دموعها انهلال القطر(80).

بلغ الرعب بالسيدات أن أرادت بعضهن العودة إلى ديارهن، وانخلعت قلوب الأخريات فما استطعن أن يذدن(81) عن أنفسهن جرأة الشباب وعدوان الصبا حين أقبل بعض الفتية يقطفون من شفاه أولئك الحسان المروَّعات تلك الدعوات المرفوعات إلى الله!

أما الرجال فقد نزل بعضهم يدخنون أعوادهم(82) في أمن ودِعة. وقبل الباقون دعوة المضيفة إلى غرفة ذات سدول وستائر. وما كدنا ندخل هذه الغرفة حتى أخذت شرلوت تصفّ الكراسي على شكل دائرة. وأجلست الجماعة كلاً في مكانه. ثم اقترحت عليهم لعبة يلعبونها، فرأيت كثيراً من الناس قد نفخوا أشداقهم وعضوا شفاههم وجلسوا جلسة الآمل رجاء أن ينالهم بعض الفائدة من رهان مكتسب. قالت شرلوت: إنّا سنلعب لعبة العد. تعدون من واحد إلى ألف، فيلفظ كل منكم العدد الذي يقع عليه بسرعة. وسأدور حول الحلقة من اليمين إلى الشمال، فمن وجدته منكم تلكأ أو أخطأ لطمته مرة. قالت ذلك وابتدأ اللعب فقال الأول: واحد. والثاني: اثنان. والثالث: ثلاثة. وهلمّ جرّا وهي تدور حولنا مرفوعة اليد. فكان من ذلك منظر ينفّس عن المكروب ويجلو صدأ القلوب، ثم أخذت تضاعف خطاها رويداً حتى كبا أحد العادين فلطمته لطمة. وضحك جاره فأذهله الضحك عن عدده فلطمته أخرى. كل ذلك وهي تسرع الخطو فنسرع في العد. وقد نالني منها لطمتان كانتا كما لاحظت أشدّ من لطمات الآخرين، فطبت بذلك نفساً ونعمت عيناً. ثم انفجر القوم جميعاً بالضحك فوقفت اللعبة دون تمام الألف. وخرج من الحلقة بعض الأصدقاء الأخصاء فجلسوا شراذم على حدة. وتبعت شرلوت إلى قاعة الرقص وكانت العاصفة قد هدأت. فقالت لي ونحن سائران: إن اللطمات قد أنستْ القومَ هولَ العاصفة. فلم أجد ما أجيبها به،

فمضت في الحديث قائلةً: أنا من أشدّ الناس خوفاً وجزعاً، ولكنني اصطنعت الشجاعة والثبات لأطمئن قلوب الآخرين فتشجعت. اقتربنا من النافذة وكان الرعد لا يزال يقصف على بعد، والمطر ينهمر على الأرض فيسيل حلو الخرير في الحقول والأودية، والهواء الفاتر تهبّ نفحاته عابقة بالعرف الزكي والأرج المنعش، فوقفت شرلوت متكئة على مرفقها وسرحت طرفها في الحقول ثم تطلّعت إلى السماء وردّت بصرها إليّ وهو مغرورق بالدمع، ووضعت يدَها فوق يدي وقالت: واكلوبستك(83)!

فسرعان ما جرى على خاطري ذكر تلك القصيدة البليغة التي قصدتها. وهيهات أن أصف لك ما أحدثته في نفسي تلك الكلمة من شدة التأثر وقوة الانفعال. بهظني الأمر فلم أستطع حمل نفسي فملت على يدها فغسلتها بدمعي ومسحتها بلثمي. وما كان أروح ذلك لقلبي! ثم أخذت عيناي تبحثان ثانية عن عينيها.

أيها الشاعر الكريم والعبقري النابغ! ما كان أجدرك أن ترى تمجيدك وتعظيمك في هذه النظرات! عسى ألا أسمع بعد الآن اسمك إلا مقروناً بالتنزيه والتجلّة!

19 يونيو

لا أدري أين وقف بنا الحديث آخر مرة. وكل ما أعلمه أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل حين آويت إلى مخدعي. ولعلني لو كنت حدتك بدل أن كتبت إليك لأسهرت جفنك حتى الصباح. لم أقص عليك ما جرى في العودة من المرقص ولا أظن الوقت يتسع اليوم لتفصيله. تنفس الصبح ونحن في الطريق فكان الشروق زاهياً صافياً، والطلّ يسّاقط من الشجر قطرة فقطرة، والروض يسيل عليه رضاب الندى فيخضلّ ويرطب، وكل ما في الطبيعة حولنا ينتعش ويحيا إلا رفيقتينا فقد بدت في أجفانهما فترة الكرى. فقالت لي حينئذ شرلوت: إذا شئت أن تأخذ حظّك من الرقاد فافعل، فإني لا أحب أن تتعب لأجلي. فقلت لها وقد حدّقت في عينيها: هيهات أن يخالط النوم جفني ما دمت أرى هذه العين ساهرة! ولبثنا كذلك يقظانين حتى بلغنا بيتها. فجاءت الخادم وفتحت الباب رويداً،

فسألتها شرلوت عن أبيها وإخوتها، فقالت: إنهم على خير حال وأحسنه، ولا يزالون في سكرة النوم فوق الأسرّة. استأذنتها في الانصراف بعد أن رجوت منها أن تسمح لي بزورتها في اليوم نفسه، فقبلت.

زرتها. وأقسم أني منذ ذلك الحين أرى الشمس تشرق وتغرب، والقمر يبزغ ويأفل، والكواكب تطلع وتغيب، دون أن أعرف لها تقلّباً ولا مداراً، ولا أعلم الوقت إن كان ليلاً أم نهاراً. فالعالم بأسره زال وانمحى من حولي فلا أجد له عيناً ولا أثراً.

21 يونيو

مثل الأيام التي تمضي عليَّ هنا كمثل الأيام السعيدة التي ادّخرها اللّه لعباده المصطفين. فمهما يصبني من مخبوء القدر فلن أقول إنّي لم أذقْ حلاوة العيشة الخالصة وسعادة الحياة المطمئنة.

لقد اتّخذت ملجأي الذي تعرفه في ولهم مسكناً ومستقراً. ذلك لأنه يبعد مقدار نصف ساعة عن بيت شرلوت، ولأني أتمتع فيه بنفسي، وأتذوق من السعادة ما قدر اللّه لبشر أن يتذوّقه. ما كان يدريني أنّ ولهم التي اخترتها لرياضتي أدنى إلى الجنة وأقرب إلى السماء؟ كم مرة رأيت في جولاتي البعيدة هذا البيت؛ بيت الصيد الذي تجمعت فيه اليوم كل رغائبي وجميع أمانيَّ، تارة من فوق الجبل، وتارة من جدَد(84) الأرض المنبسط وراء النهر!

عزيزي وليم! فكرت طويلاً في أمر الإنسان فوجدته يتطلع إلى تقطيع وثاقه(85) وتوسيع نطاقه، ويتشوّق إلى كشف أشياء جديدة واختراق آفاق بعيدة، ثم هو مع ذلك تدفعه قوة باطنة إلى أن يكتفي بوجود محدود، ويقتفي آثار العادة غير ملتفت إلى ما يوجد عن يمينه أو عن شماله.

لدى حلولي هذا المكان كنت كلّما أجلت النظر في هذا الوادي الجميل من أعلى الربوة أشعر أن نفسي نزّاعة إلى كل جهة من جهاته: أرى الغابة الصغيرة هناك فأشتهي أن أتفيّأ ظلّها الوارف، وألمح قمة الجبل فأتمنى لو علوتها فأكتشف مساحة هذه البلاد، وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة فأود لو أضل في شعابها وأجول في رباها؛ فإذا ذهبت إليها ضائراً عدت أدراجي غير واجد ما كنت أرجوه وآمله.

هكذا أمر الغد: ظلام متكاثف منتشر أمام النفس يخوض في أحشائه القلب، ويضل فيه ضلال البصر في المنظر البعيد، ويذيبنا الشوق إلى الانتقال بأسرنا إليه لنحظى بالشعور الفرد والسرور المحض والعيش الرفيع(86)، فنركب إلى الوصول إليه كل صعب وذلول؛ حتى إذا تمثل الغد وتحقق المرجو واقترب البعيد وجدنا كل شيء على حاله الأولى: حياة سيئة، ومعيشة ضنك، ومستراد حرج(87)؛ ورأينا أنفسنا الصادية نحنّ عبثاً إلى الشراب البارد العذب الذي فاتها، ثم يعاودها الأمل فتأمل!

كذلك الأفّاق ذو النفس القلقة والطبع الشرود: ينتهي به الأمر إلى أن يتمنى العودة إلى وطنه، فيجد في كسر كوخه، وبين أحضان زوجه، وفي وسط أطفاله، وفي الكدح لعياله، تلك السعادة المرجوة التي نقّب عنها في معالم الأرض ومجاهلها فأخفق.

أخرج في الغالب والشمس في خدرها إلى ولهم فأجني البسلى بيدي من بستان الفندق، وأجلس فأنزع القشور عنها وأنا أقرأ هوميروس. ثم أتخير قدراً من قدور المطبخ فألقي فيها البسلى مع شيء قليل من الزبد وأغطيها ثم أضعها على النار وأقعد بجانبها أحركها من حين إلى حين، فيتمثل في خاطري إذ ذاك كيف كان عشاق بنيلوب(88) الصلفون وخطابها الوقحون ينحرون الثيران والخنازير ويقطعونها ثم يشوونها بأيديهم!

لا شيء أملأ للنفس وأملك للحس من تلك الحياة الأبوية البدوية التي أستطيع بحمد اللّه أن أخلطها بحياتي اليومية دون مراءاة ولا تظاهر.

ما أسعدني بذلك القلب الذي يقدر على إدراك هذا السرور الساذج البريء، سرور الرجل الذي يأكل على خوانه كرنبة من غرس يديه! أتحسب أنه يتمتع بأكلها فحسب، إنما يتمتع في وقت واحد بذكرى تلك الأيام السعيدة التي قضاها في زرعها! فيذكر الصباح الجميل الذي غرسها فيه، والليالي العذاب التي أمضاها في سقيها، وما كان يشعر به من غبطة ورضا حين كان يراها مباركة نامية.

29 يونيو

في أمس البارحة جاء طبيب المدينة يزور الحاكم فوجدني جالساً على الأرض بين أطفال شرلوت، بعضهم يحبو عليّ، وبعضهم يمتد بالقرص إلي وأنا أدغدغ(*) هؤلاء وهؤلاء فنحدث ضوضاء وجلبة. الدكتور ـ وهو رجل نظريات وقواعد ـ تراه مخشوشب الجسم كأنه عروس من الخشب ذاتُ زُنْبُرُك، يكلمك ويده تبسط ما تغضّن من كمه، وترفع رباط رقبته إلى طرف ـ يرى (كما يتبين من أنفه) في تلك المداعبة منقصة لا يفعلها ذو نهية(89)، فلم أحفل بذلك وتركته يخوض في مسائل مختلفة من العلم وأقبلت على قصر من الورق قد هدمه الصبيان فأعدت بناءه. ومشى صاحبنا في المدينة يرفع عقيرته (90) بالشكوى إلى الناس لأن فرتر قد زاد الحاكم فساداً وسوءَ أدب.

أجل يا عزيزي وليم! ليس على وجه الأرض شيء قلبي أشدّ ميلاً إليه وأكثر عطفاً عليه من الأطفال. أتأملهم فأرى في جبلتهم(91) أصول الفضائل والملكات التي يضطرون إليها بعد، وألمح في لجاجهم وعنادهم اليوم صدق عزيمتهم ورصانة خليقتهم غداً، وفي طيشهم ونزقهم سهولة الطبع وبهجة النفس التي ستنير لهم وجوه الغير(92)، وتجلو أمامهم ظلم الخطوب. كل ذلك أراه خالصاً غير مشوب، وكاملاً غير منقوص، فلا أفتر عن ترديد هذه الجملة الذهبية التي قالها معلم(93) الإنسانية: «إذا لم تصبحوا كهؤلاء!» فانظر ماذا نفعل يا صاح. نعامل أطفالنا وهم أمثالنا في الخَلق وقدوتنا في الخلق معاملة الأتباع والخدم. نريد ألا تكون لهم إرادة، فهل نحن خالون منها؟ علام اعتمدنا في ادّعاء هذه الخصائص؟ أعلى أننا أعلى منهم سنّاً وأحكم عقلاً؟ سبحانك اللهم إنك لا تنظر من عليا سمائك إلّا إلى

أطفال كبار وأطفال صغار ليس غير. وقد علَّمنا المسيح منذ زمن طويل أي الفريقين عندك خير مقاماً وأجمل ذكراً. ولكنهم وا أسفاه يؤمنون به ولا يسمعون إليه، وتلك مصيبة قديمة ثابتة. إنهم يحملون أولادهم على خصالهم، ويحذونهم على مثالهم، و... وداعاً يا وليم! فحسبك ما هذيت في هذا الموضوع.

أول يوليو

إن قلبي ـ وهو أسوأ حالاً من قلب شفَّه المرض وأذواه ـ يشعر بما لشرلوت من جميل الأثر للمريض العميد(94).

تبلَّغت العلّة بسيدة كبيرة في المدينة ولم يبقَ منها كما حدث الأطباء غير رمق ضعيف. فتمنت أن ترى شرلوت بجانب سريرها وهي في نزاع الموت فذهبت إليها، وستلبث لديها بضعة أيام.

وفي الأسبوع الماضي زرتُ معها قسِّيس قرية... وهي قريةٌ صغيرة في منعزل بين الجبل على فرسخ من هنا. فبلغناها زهاءَ الساعة الرابعة وكان مع شرلوت أختها الصغرى. فلمَّا دخلنا فناء بيت القسيس المظلَّل بشجرتين من شجر الجوز وجدناه جالساً على مقعد أمام الباب، فلم يكد يرى شرلوت حتى عراه نشاط وهزة. فخاطر بالنهوض إلى لقائها ناسياً عصاه العقداء(95). فهرولت إليه وأجلسته ثم جلست إلى جانبه تقرأ عليه تحيات أبيها وتلاطف ولده الأصغر وهو دميم الخلقة قذر الثوب تقذى به النواظر، وتتقزز منه النفس. لو كنت رأيتها وهي تحادث هذا الشيخ الساذج وترفع صوتها بالحديث لتبلغه إلى أذنه الموقورة(96)، وتذكر أنباء الشباب الأقوياء وقد أخذهم الموت على حين بغتة، وتثني على ماء كرنسباد وتزين له الاصطياف بها من قابل(97)، وتؤكد له أنه في حاضره أنضر وجهاً وأنشط قلباً منه في غابره!

أما أنا ففي تلك الفترة كنت أقوم بواجب الأدب والمجاملة لزوجة القسيس. وقد راقني جمال الشجرتين وشرح صدري ما أضفتاه علينا من وارف الظل فلم أتمالك أن جهرت

بالإعجاب بهما والارتياح لهما.

فطفق الشيخ وقد أخذته أريحية السرور يقص علينا حديثهما قائلاً: «أما الشجرة العتيقة فلا يدري إلا اللّه من غرسها. بعض الناس يقول إنه القسيس فلان، وبعضهم يقول إنه غيره. أما الحديثة فهي رِئد(98) امرأتي، غرسها أبوها في صباح يوم وُلدت هي في مسائه. وسيكون لهما خمسون عاماً في شهر أكتوبر.

لقد كان أبوها سلفي في هذه البيعة(99). وكان يعز هذه الشجرة إعزازاً لا أستطيع لك وصفه. وقد ظفرت من قلبي بهذه المكانة أيضاً، لأن امرأتي كانت جالسة تنسج على خشبة في ظلّها حين دخلت هذا الفناء لأول مرة وأنا تلميذ بائس منذ سبعة وعشرين عاماً.

ثم سألت شرلوت عن حال ابنته وأين هي، فقال لها: إنها خرجت مع السيد سميث إلى بعض المروج ترى العمال كيف ينجلون(100) المرعى. ثم عاد إلى حديثه فذكر ما كان له عند سلفه وابنته من الود المصفَّق والولاء الشديد. وكيف صار له مساعداً ثم خلفاً.

لم يكد يفرغ من حكايته حتى رأينا ابنته مقبلة مع صاحبها بين أشجار الحديقة فاستقبلت شرلوت بالترحيب والعناق. ولا أكذبك فقد خفَّت على قلبي. إنها سمراء اللون حرِكة الجسم سويّة الخَلق. وقد يثلج النفس أن تقضي معها تلك الساعات بين الحقول. أما حبيبها (كما تنطق بذلك هيئته) فرجل مهذب النفس حسن الحلية إلا أنه صموت، فلم يشأ أن يطارحنا الحديث على الرغم من محاولة شرلوت أن تجره إليه. وشرّ ما آلمني ما علمت من سحنته أن سكوته يرجع إلى انقباض النفس أكثر مما يرجع إلى تخلّف الذهن. وذلك ما انكشف عنه قناع الشك بعد قليل. خرجنا نتنزَّه فسارت فريدريك بجانب شرلوت. واتفق أن سارت بجانبي مرة أو مرتين فرأيت الرجل وقد اكفهرّ وجهه الأسمر وأربد، فجذبتني شرلوت من كمي وأشارت إلى أني أسرفت في مؤانسة فريدريك والتظرف إليها.

ما حزنت نفسي لشيء حزنها لأولئك الذين لا ينفكون متألمين مكتئبين ولا سيّما إذا كانوا في ربيع العمر ومقتبل الشبيبة، حين تكون صدورهم مشروحة وقلوبهم مفتوحة لمسرات

الحياة وملذات العيش، ويكدّرون صفو أيامهم الجميلة القليلة بانقباض النفس وتقطيب الوجه. ثم يدركون بعد أن قضي الأمر أنهم فرطوا في خير لن يرجع، وبذروا في ثروة لن تعود.

ولما رجعنا في المساء إلى بيت القس وجلسنا إلى منضدة في فناء الدار نشرب اللبن ونتحدث، أفضى بنا الحديث إلى مسرات الحياة وهمومها، فكرهت أن تمر هذه الفرصة دون أن أحمل على ذوي النفس المنقبضة والقلب الحزين. فقلت: إنّا معشر الرجال لا نفتأ نزعم أن الدنيا تسوء أكثر مما تسرّ، وتنفع قليلاً ثم تضرّ، واللّه يعلم أنَّا كاذبون في هذا الزعم، ومسرفون في هذا الوهم، وأنَّ نفوسنا لو كانت مهيَّأة على الدوام للتمتُّع بما يسوقه اللّه إليها كل يوم من طيبات الرزق وغفلات العيش لتلقينا محن الدهر متى أقبلت بصدر واسع وخلق وادع وصبر جميل. فقالت زوجة القسيس: ولكن نفوسنا ليست طوع أمرنا، ولا نازلة على حكمنا، بل هي تابعة لجسومنا في أكثر حالاتها، تمرض بمرضها وتصح بصحتها. فقلت لها: أنا مقتنع بذلك ويجب أن نعد الانقباض مرضاً، ونرى إن كان في مقدورنا أن نطبّ له ونشفيه. فقالت شرلوت: أصبت الحق فيما تقول، فإني أعتقد فينا القدرة على ذلك كما خبرته بنفسي، فكنت إذا حضرني الهم وساورني القلق أمشي في الحديقة مغنية لحنين أو ثلاثة من ألحان الرقص فتنسلي(101) هموم صدري، وتنجلي كُرب نفسي. فقلت لها ذلك ما أريد أن أقول؛ فإن مثل المزاج المنقبض كمثل الكسل سواء بسواء: نجد في طباعنا ميلاً إلى الفراغ وإخلاداً إلى الراحة، ولو أنا شجعنا مرة على طرح الكسل، وحسرنا على يدنا للعمل، لوجدنا في الجد لذة لا تعدلها لذة.

كانت فريدريك مصغية بسمعها إليّ مقبلة بذهنها علي، فهاج ذلك في الفتى حب الكلام فقال معترضاً: ولكن المرء عاجز عن كبح نفسه وضبط عواطفه. فقلت أن بحثنا يدور حول عاطفة مرذولة يود كل منا أن يتخلى عنها ويتخلص منها. ولا يدري امرؤ إلى أي غاية تقف قواه إذا هو لم يبلها(102). فالمريض الذي تشتد رغبته في نيل العافية لا يني في استشارة الأطباء طبيباً طبيباً، ولا يرفض الاستسلام للحمية الشديدة المستمرة، ولا الصبر على مضض العقاقير المرة. ثم لاحظت الشيخ الصالح يرهف أذنه لما نقول ويجمع باله لما

نذكر، فرفعت صوتي بالحديث وملت به إليه قائلاً: «درج الواعظون على أن يحذروا الناس كثيراً شر الرذائل ولم نسمع واحداً منهم يحذرهم شر النفس المنقبضة»(103). فقال القسيس: ذلك شأن وعاظ المدن. أما القرويون فلا يعلمون عن انقباض النفس شيئاً. على أن عظة من هذا النوع قد تفيد الحين بعد الحين لتكون على الأقل درساً لامرأتي ولسيدي الحاكم. فضحك الجماعة وقهقه هو حتى أخذته نوبة سعال شديدة قطعت حديثنا زمناً. ثم عاد الفتى إلى الحديث فقال: إنك دعوت انقباض النفس رذيلة، وفي ذلك على ما أرى غلو أو مبالغة. فقلت له: ليس في الأمر شيء من ذلك ما دمنا نطلق هذا الاسم على كل ضار بنا وبأهلنا. أما كفى ألا نستطيع أن يسعد بعضنا بعضاً حتى يسعى كل منا في اختلاس ما يجد أخوه من المسرة في قلبه، وما يشعر به من الغبطة في نفسه؟! أروني رجلاً سوداوياً قدر على كظم انقباض النفس أن يكون غيظاً كميناً في نقص كفايتنا وسقوط قدرتنا، وسخطاً على أنفسنا مصحوباً برذيلة الحسد التي تهيج فينا الزهو الشديد والعجب المفرط؟ إذا رأينا قوماً سعداء لم نكن نحن مصدر سعادتهم كان ذلك علينا شديداً غير محتمل.

فلما رأتني شرلوت أتكلم هكذا وأنا ثائر مضطرب نظرت إلي وابتسمت. أما فريدريك فرأيت في مآقيها دمعة تترقرق، فحملني ذلك على الاستمرار فقلت: بؤساً لأولئك الذين يتخذون من سلطانهم على بعض القلوب سبيلاً إلى حرمانها تلك المسرات البسيطة التي تنبعث فيها من تلقاء نفسها! فلا التحف والهدايا، ولا الظرف والملاطفة، بمعوضة عن تلك اللحظة التي سعدنا فهيا بأنفسنا فسمها ذلك الخائن بحقده وغيرته.

في تلك الساعة فاض قلبي بالخواطر وانثالت(104) على نفسي الذكرى، فأجهشت عيني بالبكاء وصحت قائلاً: آه! حبذا لو كان كل منا يصون لنفسه كل يوم: إنّ أول الواجبات عليك لمن تحب أن تحفظ له مسرته، وأن تزيد سعادته وغبطته، وأن تشاطره فرحه وبهجته. وإنك لا تستطيع أن تأسو(105) كلوم قلبه إذا صدعه الهم وأمضه الجوى. وإذا ما غشيت سكرة الموت تلك التي أذويت حياتها وهي ناضرة مزهرة، ورأيتها معمودة(106) قد دكها المرض وأضنتها العلة وعيناها السادرتان(107) شاخصتان إلى السماء، وجبينها الشاحب من عرق الموت في جزر ومد، عرفت بعد أن حمّ القضاء ـ وأنت واقف حيال سريرها وقفة

المجرم المقضي عليه ـ أنك لا تملك لها نفعاً، ولا تستطيع لمكروهها دفعاً، فتذهب نفسك حسرات على أنك لم تنفق ما تملك لتبعث في هذا الجسم الضارع المنحل(108) بقية من العزاء وإثارة من الحياة!

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى قامت في خاطري ذكرى موقف كهذا الموقف فغلبني على نفسي واستمطر شؤون(109) عيني، فسترت وجهي بمنديل وانتبذت ناحية، فما عدت إلى رشدي إلا على صوت شرلوت تدعوني إلى الرحيل. فلما انفرد بنا الطريق أخذت شرلوت تؤنبني على شدة اهتمامي بكل شيء وتنصحني أن أبقي على نفسي وأهاونها، فإن مغبة ذلك وخيمة عليّ.

أيها الملاك الكريم! إني إذا حييت فلأجلك، وإذا سعدت فبفضلك! حاضرة الذهن رقيقة الطبع ترسل من نظراتها العزاء للمنكوبين والسعادة للمنكودين.

خرجت تتنزه مساء أمس مع أختيها مريان وأميلي الصغيرة، وكان عندي بهذه النزهة علم، فوافيتهن إليها، ومشينا معاً ساعة ونصفاً. ثم ارتددنا إلى المدينة فمال بنا الطريق إلى المنبع الذي آثره قلبي بإعزازه، وأصبح منذ اليوم أعزّ عليّ أضعافاً مضاعفة. جلست شرلوت على حائطه الصغير ولبثنا أمامها وقوفاً. ثم ألقيت نظرة على ما حولي فلمحت في صحيفة الماضي تلك الفترة التي قضيتها في هذا المكان منعزلاً وحيداً، فقلت: «أيها المنبع العزيز! مضى زمن لم أرفه فيه عن نفسي بنسيمات الرطب ونميرك العذب. ولطالما مررت بك وشيكاً من غير أن أنظر إليك، أو أقبل عليك». ثم نظرت إلى أسفل فرأيت إميلي صاعدة وفي يدها قدح من الماء قد ربكها حمله. وكنت إذ ذاك أتأمل شرلوت وأشعر بأثرها فيّ ومكانتها لدي. فلما أقبلت إميلي بالماء رغبت مريان في شربه، فأبته عليها الطفلة وصاحت بعبارة رقيقة عذبة: «لأنت يا شرلوت أول من يشرب من هذا الماء!» فاستخفني ما سمعت في جملة البنيَّة من صدق اللهجة ورقة القلب، فلم أجد طريقة أعبر بها عن شعوري وسروري سوى أن رفعتها بين يديَّ وقبَّلتها بحنان وقوة. فهبت الطفلة من فورها تصرخ وتعول؛ فوقفت دهشاً مبهوتاً! وجاءت شرلوت فقالت: «لقد أسأت إلى البنية!» وأخذت

تلاطفها وتسرِّي عنها بقولها: «إليّ إلي يا ليلى! لا بأس عليك منه!» ثم أمسكت بيدها وهبطت بها إلى المنبع وقالت لها: «أغلّي وجهك سريعاً بهذا الماء البارد يذهب عنك ما يضرك». أما أنا فلبثت في مكاني أنظر إلى البنية وهي تحك خديها بيديها الصغيرتين المبتلّتين على اعتقاد راسخ بأن هذا الماء سيذهب عنها الرجس ويقيها شر الخجل من لحية(110) قبيحة كثيفة تنبت في ذقنها وعارضيها. وكلما صاحت بها شرلوت: «كفى! كفى!» ضاعفت الابنة همها واستفرغت جهدها، كأنها تعتقد أن الغسل الكثير أنقى من القليل وأبلغ.

أؤكد لك يا وليم أني لم أرَ فيما عشت تعميداً أفضل من هذا ولا أكمل. ولقد حدثت نفسي عندما صعدت شرلوت أن أسجد لها كما أسجد لنبي كفَّر عن خطيئات شعبه!

أخذتني هزة السرور بهذا الحادث فما تمالكت أن أذعته في مساء ذلك اليوم إلى رجل كنت أظن أن له قلباً كما أن له رأساً فيقدر هذه السذاجة الإنسانية حق قدرها. ولكني كنت واهماً في زعمي ومخطئاً في حكمي؛ فقد قال إن شرلوت ضلت ضلالاً بعيداً، وأن من الخطل أن نحق الباطل ونزين العاطل للأطفال، وأن أمثال هذه الأساطير يفسح مجالاً لأباطيل وترهات كان أولى بالمربّي أن يقتلع جذورها من قلوبهم وهي غضة... تذكرت حينئذٍ أن هذا الرجل قد عمَّد(111) منذ ثمانية أيام ولداً من أولاده؛ فضربت عن ذلك صفحاً وبقيت مؤمن القلب بهذه الحقيقة، وهي أن نعامل أطفالنا معاملة اللّه لنا، فإنا لا نكون أسعد نفساً ولا أرغد عيشاً إلا إذا تركنا نهيم في أودية الأحلام الواسعة، ونعيش في سكرة الأوهام الخادعة.

8 يوليو

لا جرم أنّي طفل! ما بال قلبي يهفو في أثر نظرة؟! للحق إنّي طفل! كنا ذاهبين إلى ولهم، وكانت السيدات قد خرجن من مركبة. ففي أثناء هذه النزهة رأيت يقيناً في طرف شرلوت الأدعج الساجي(112)... عفواً يا أخي وصفحاً! فإني رجل أحمق. كنت أريد أن ترى بعينيك

عينيها... لا أطيل القول فقد دب في جفني الكرى. صعدت النساء المركبة ووقف على بابها الفتى «و» وسلستاد وأدران ثم أنا. وأقبلت النسوة على هؤلاء الفتية الهوج الرقعاء يحادثنهم، وطلبت نظرات شرلوت فوجدتها تنتقل من واحد إلى آخر. أما أنا! أنا الذي لم أشغل إلا بها، ولم أفكر إلا فيها، فلم تتجه إلي ولم تقع علي. ولقد كرر قلبي لها الوداع ألف مرة، وهي لم تنظر إلي مرة!

انطلقت المركبة فغرغرت عيناي بالدمع وتبعها بصري فرأيت رأس شرلوت بارزاً من باب المركبة. رأيتها تلتفت لتنظر. فليت شعري إلى من تنظر؟ أإلي تلتفت وإياي تنظر؟ عزيزي وليم! أنا في هذا الشك مضطرب متردد، ولا عزاء لنفسي إلا أن أقول لها: ربما تكون قد التفتت إلي ربما... ليهنك النوم يا عزيزي! آه! ما أجدرني أن أعد طفلاً...

10يوليو

كنت أريد أن ترى وجهي كيف يغيره الحمق ويصوره إذا ما تكلم أحد عنها في ملأ، ولا سيما إذا سألني إنسان هل تعجبني؟ تعجبني! ما أثقل هذه الكلمة على سمعي! كيف يكون رجلاً من تعجبه شرلوت دون أن تمتلئ بها قواه ومشاعره؟ تعجبني! لقد سألني بعضهم منذ قليل هل في «أشيان» ما يعجبني!

11 يوليو

لا تزال زوجة السيد «م» تكابد غصص المرض وتقاسي لهاث(113) الموت. وأنا أدعو اللّه أن يمسح عليها بيد العافية، فإني أتألم مما يؤلم شرلوت. أصبحت لا أرى الحبيبة إلا نادراً عند إحدى ضواحيها. ولقد قصت علي اليوم هذه الحادثة الغريبة: وهي أن زوج المحتضرة رجل دنيء الحرص جماد الكف(114)، وقد جعل حياة امرأته بشحه وتقتيره سلسلة آلام ومجمع هموم. غير أنها لم تعدم مع ذلك وسيلة تعيش بها وادعة قانعة. فلما أعضل(115) الداء ونكل(116) الأطباء وزهفت(117) إلى بسر لو دفنته معي لأحدث بعد موتي ضرراً وبيلاً وشقاقاً طويلا. لقد دبرت منزلك منذ وليته إلىالآن بما استطعت من ترتيب وتوفير

وحكمة. بيد أني أستميحك العفو عن خداعي لك وغشي إياك ثلاثين عاماً. إنك لم تخصص في العهد الأول من زواجنا إلا مبلغاً زهيداً من المال نفقة إقناعك بزيادة النفقة الأسبوعية. وجملة القول إنك طلبت مني أن أقيم وأودك وأسد عوزك، على ازدياد نفقاتك وكثرة طلباتك، بسبع فلورينات(118) في الأسبوع. كنت أرضى بذلك القدر مكرهة إجابة لطلبك واجتناباً لغضبك؛ ولكن ما يعوزني من نفقة الأسبوع كنت آخذه بيدي من كيسك معتقدة أن ذلك لا يدخل في باب السرقة.

أنا ما بذرت ولا أسرفت. وقد اعترف لك بهذا الأمر لا لأنه جريمة أخشى لقاء اللّه بها وعقابه عليها، فإني راضية عن نفسي، مستريحة لعملي؛ ولكني خشيت أن تقول للمرأة التي ستخلفني على تدبيرك إذا فدحها الأمر وأعيتها الحيلة: أن امرأتك الأولى كانت راضية بذلك القدر قانعة به».

حادثت شرلوت ملياً في أمر الإنسان وعمايته المفرطة. يرى سبع فلورينات تقضي حاجة بيت جاوزت نفقاته الضعف ولا يجد في الأمر شيئاً يستريبه وينكره! على أن في الناس من يعتقد أن معجزة بعض الأنبياء في جرة الزيت التي تنزح ولا تنفد قد انتقلت إليهم، وتجددت لديهم!

12 يوليو

كلا، لم أك مخدوعاً، فقد قرأت في عينيها الدعجاوين عطفاً؟ علي وعنايتها بأمري. أجل! إني أشعر ـ وقلبي لا يُتهم في ذلك ولا يمين(119) ـ أنها... أأجرؤ على النطق بهذه الكلمة التي تضمنت نعيم الحياة وسعادة الجنة؟ أنها تحبني! اذلك ما يتوهمه قلبي ويدعيه، أم هو الشعور الحق لا ريب فيه؟ أنا لا أعلم رجلاً يستطيع أنّ يغلبني على حبها، أو يعبث بي في قلبها. على أنها إذا حدثتني عن ألبير بما تضمر له من حب أكيد وشوق شديد. أخذني ما يأخذ القائد الرغيب العين(120) الطموح النفس إذا حُط من مقامه، وجرد من وسامه، وأرغم على تسليم حسامه!

16 يوليو

آه! ما هذه النار التي تتمشى في أعضائي كلما اتفق أن مست يدي يدها أو لمست قدمي قدمها تحت المائدة؟ إني أجتذب يدي منها سريعاً كأنما لذعتها جمرة متقدة، ثم لا تلبث قوة خفية أن تدفعني ثانية إليها. ما أعظم الدوار الذي استقل مشاعري واستولى علي! ولكن نفسها البريئة النقية تجهل ما تجر علي هذه المداعبات القليلة من الأذى والمضرة. إذا تحدثت إلي وضعت يدها على يدي، فإذا ما استمر الحديث اقتربت مني حتى أجد نفحات أنفاسها السماوية على شفتي... هناك يخيل إلي أن جسمي يتصدع ويذوب كأنما صعقته صاعقة.

هل أفكر يوماً يا وليم أن أدنس تلك العفة وأخون هذه الثقة؟ حاشاي أن أفعل! فلست خبيث الدخلة فاسد القلب إلى هذا الحد. نعم أن قلبي ضعيف جد ضعيف... ولكن ليت شعري لم لا يكون ضعفه من فساده؟

إني أجلها وأقدسها. فإذا كنت معها سكنت رغباتي وفنيت نزعاتي. ثم لا أدري في أية حال أكون إذا دانيتها: تكون نفسي حائرة مضطربة، وأعصابي هائجة قلقة.

إنها تعرف لحناً من ألحان الموسيقى تعزفه على البيان بما شاء اللّه من قدرة وسذاجة وتأثير. ذلك لحنها المختار إذا ما أخذت تعزفه سكنت آلامي، وتبددت وساوسي وأوهامي.

ليس شيء بعد ذلك فيما ذكره القدماء عن تأثير الموسيقى وفعلها الساحر بمنهَّم عندي ولا مدخول. ما أفعل هذا اللحن بقلبي! وما أقدره على اختيار الوقت المناسب لعزفه! إنها تعزفه ساعة لا أرجو الراحة والسكون إلا في الموت، فتنجلي ظلمات قلبي، وتذهب ضلالات فكري، وأردد أنفاسي وادعاً طليقاً.

18 يوليو

وليم! ما قيمة العالم بأسره في نظر القلب، إذا ما خلا من نعمة الحب؟ إنه يكون أشبه بالفانوس السحري من غير ضوء. فإذا ما أدخلت فيه المصباح لا تلبث أن ترى صوراً جمة الألوان على الحائط الأبيض. وترانا وإن لم نجد غير تلك الأشباح الزائلة والأخيلة الباطلة، نسعد بالوقوف والنظر إليها، كالأطفال ذوي تهذا اليوم إلى شرلوت، لأن جماعة ضربوا إلي موعداً لا قبل لي بإخلافه، فأرسلت إليها خادمي لا لشيء سوى أن يكون بجانبي من دنا منها ونظر إليها هذا اليوم. لبثت أتنظره على أحر من الجمر فلما رأيته عائداً استطارني الفرح وهممت أن أعانقه لولا أن قعد بي الحياء ومنعني الخجل.

لقد كان فيما زعم الناس أن حجر بولونيا إذا عرض للشمس اقتبس من أنوارها واختلس من أشعتها حتى ليبقى هزيعاً من الليل مضيئاً. وتلك كانت حال هذا الخادم معي، فإن شعوري بأن عينيها وقعتا على وجهه ووجنتيه وأزرار ثوبه وطوق عباءته، جعل هذه الأشياء في عيني ثمينة مقدسة، وأنزله من قلبي منزلة سامية حتى لتأبى نفسي في تلك اللحظة أن أبيعه بألف دينار. يا الله! كم كنت سعيد النفس بحضوره!

ربأ اللّه بك يا وليم عن الضحك من هذه الأشياء، وأعاذك من نقيصة السخر والاستهزاء، وهل تنكر أن ما يسعد نفوسنا ويذهب برؤوسنا، ليس إلا أخيلة طائفة، وأشباحاً هاتفة؟

19 يوليو

أول ما أهتف به في الصباح هذه الجملة: «سأذهب لأراها» ومنذ أنهض من منامي وتستقبل عيناي أشعة الشمس الجميلة لا أجد لي طول النهار مبتغى غير أن أراها. تجمع ما أتمناه في هذه الأمنية، وتحقق ما أبغيه في هذا الرجاء، فلم يبق لي ما آمله ولا ما أرجوه.

20 يوليو

ترى لي أن أصحب السفير إلى فيينا، وعزيز علي أن أصير إلى ما ترى. لا أحب أن أكون تابعاً. وفوق ذلك فكلنا يعلم أن ذلك الرجل كريه بغيض. تقول إن أمي تريد أن تراني

مشغولاً... أمر مضحك! وهل أنا خلي يا صديقي؟ ألم أكن الآن مشغولاً؟ وأي فرق في الواقع بين أن أقشر بسلى أو باقلى؟ كل ما في العالم يؤدي إلى غاية دنيا حقيرة. فمن ينهك نفسه بالعمل في اكتساب المال أو الجاه ابتغاء مرضاة الناس لا اتباعاً لأهوائه ورغائبه، ولا قضاء لأغراضه ومآربه. فقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً.

24 يوليو

أراك تحرص على أن أرهف للتصوير عزمي وأحسر له عن يدي، وذلك ما يحدوني إلى طي الحديث عنه حتى لا أعترف لك أني ما أحدثت منذ بعيد شيئاً يذكر.

ما رأيتني كاليوم أسعد بالحياة نفساً، ولا أتم بالوجود علماً، ولا أصح للطبيعة فهماً. تغلغل فكري في أعماق الكون، من الجبل إلى الحصاة، ومن الدوحة إلى العشبة، وأراني مع ذلك إذا حاولت الشرح والبيان التاث(121) الأمر علي ووجدت القول فيه وراء الطاقة وفوق الإمكان... ذلك لأن ملكة التعبير أدركها الوهن والعجز حتى لتمر الاشياء بنفسي مرور الطيف خفاقة مضطربة لا أستطيع أن أقتص منها حرفاً، ولا أن أعرف لها وصفاً. ويخيل إلي أني لو أوتيت صلصالاً(122) أو شمعاً لصورت بيدي ما يجول بخاطري وتحسه مشاعري. ولو استمر ما بي على حاله لاتخذت الطين ثم صورته... ولو لم أصنع منه إلا كرات وفرازق(123)!

حاولت ثلاث مرات أن أصور شرلوت فأخفق ويضرج وجهي الخجل، ثم يعتريني فضلاً عن ذلك هم وكآبة، لأني كنت قبل اليوم أرسم التشابه بحذق وتوفيق وسهولة. فلما أعياني الأمر رسمت وجهها رسماً تقريباً واضطررت أن أقنع به.

25 يوليو

نعم يا شرلوت ونعام عين! سأصدقك السعي فيما كلفتني، وأكفيك من حاجتك ما استنكفيتني. فلا تخشي أن تحمليني من أمورك غير هذا فإني خفيف إلى مبتغاك سريع إلى

رضاك. ولا أسألك على ذلك شيئاً إلا أن تعفي رسائلك إلي من تجفيفها بالرمل فإن رسالة اليوم رفعتها بقوة إلى شفتي فانجرس الرمل تحت أسناني، ودهاني من ضرسها ما دهاني!

26 يوليو

كثيراً ما عاهدت نفسي ألا أزداد منها قرباً، وألا أزورها إلا غبا. ولكن من يستطيع أن يفي بهذا العهد، ويصدق في ذلك الوعد؟ لقد يحدث كل يوم أن أقع في المحظور فأذهب إليها مقيماً جهد اليمين ألا أبرح المنزل غداً. فإذا جاء الغد لا أعدم سبباً قاهراً يسوغ زيارتها ويستدعي لقاءها، فأجد نفسي بجانبها قبل أن أفكر في السبب. أو يحدث أنها تقول لي في المساء: «أما أراك غداً؟» ومن ذا الذي بعد ذلك يطيق دفاعاً أو يستطيع امتناعاً! أو تحملني رسالة فأرى الأنسب أن أحمل إليها الجواب بنفسي، أو أجد السماء صحواً والهواء رخواً فآخذ الطريق إلى ولهم، فإذا ما كنت هناك لا يكون بيني وبينها إلا نصف فرسخ. إني أذن أكون شديد الاقتراب من جوها ومدارها فتجذبني فأرى نفسي فجأة بين يديها.

لقد كانت جدتي تحدثني عن جبل المغناطيس أن السفن إذا اشتد دنوها منه طارت إليه دسرها(124) وحدائدها وخلفت الملاحين في يد الموت صرعى بين الأمواج المترامية والألواح المتداعية.

30 يوليو

عاد ألبير فليس لي إلا الرحيل. فإن وراء احتمالي أن أراه أمام عيني يملك هذا الجمال الفاتن والكمال الرائع مهما يكن أعظم الناس خطراً في عيني، وأجلهم موقعاً في قلبي، وأجدرهم بإجلالي وحبي. أجل يملكها يا وليم، وحسبك ذلك! إنه خطيبها وقد أقبل. وهو رجل سري الأخلاق طيب القلب قد خلا مما يصرف القلوب عنه، وينفر الطباع منه. والحمد لله على أني لم أشهد ساعة استقباله، فقد كان ذلك يورثني حزناً يذيب لفائف القلب. على أن الرجل بلغت به سراوة الخلق ألا يقبِّل شرلوت على محضر مني، وتلك يد لا يستقبل بثوابها غير فضل اللّه. إن ما يبديه إلى شرلوت من مظاهر الإعظام والتجلة ليدفعني إلى

حبه وإكرامه. أما ما يظهره من العطف علي والميل إلي فليس على ما أظن صادراً عن قلبه ولا ناقلاً عن شعوره؛ وإنما ذلك عمل من أعمال شرلوت. والنساء في مثل هذه الأمور أنفذ بصائر وأبعد مدارك. ولهن الحق في ذلك، فإنهن متى استطعن أن يجمعن رجلين من صرعى غرامهن بأواصر المودة كانت ألقتهما أنفع لهن وأعود عليهن، وإن كان ذلك لا يقع إلا في الندرة.

لا يسعني أحياناً إلا أن أجل هذا الرجل وأكبره؛ فإني وإياه في الطبع على طرفي نقيض. هو واسع الخلق رحب الأناة، وأنا لزق الطبع طائش الحلم، لا أملك من نفسي ما يملك من نفسه. هو رقيق الشعور لطيف الوجدان يعرف قيمة شرلوت ويقدرها قدرها. ويظهر أنه قليل الخضوع لسلطان ذلك الغيب الذي لا أغفره دون سائر العيوب وهو انقباض النفس.

أنه يعتقد في ذكاء القلب وصفاء الذوق؛ فلما رآني أحب شرلوت وأطرب لكل ما تفعله زهاه النصر ولج به الفخر وازداد لها حباً وبها ولوعاً.

أنا لا أبحث إن كان يؤلمها أحياناً بسخافة الغيرة أو لا يؤلمها، فإني لو كانت مكانه لما سلمت من نزغات هذا الشيطان، ولما نجوت من شر هذا الخلق.

ومهما يكن من شيء فإن سعادتي بقربها قد استرجعتها الأيام فلم تعد إلا ذكرى. قل لي بربك ماذا أسمي ذلك؟ أجنوناً أسميه أم عمى؟ وماذا تفيد الأسماء أو تنفع الألقاب والشيء دال على نفسه بنفسه؟ كنت أعلم قبل قدوم ألبير كل ما أعلمه اليوم. كنت أعلم أن ليس فيها ولن تكون لي فيها رجية ولا أمل.. وكنت أحبس رغبات نفسي ما استطعت كلما أثارتها رؤية هذا الحسن الرائع والجمال الفاتن.. وتراني الآن أنظر نظر الأبله. وأعجب عجب الأحمق، لأن ألبير جاء بالفعل يسترد أمانته ويسترجع عادته: لقد بت أحرق الأرم(125) على جدي العاثر وحظي المنكود، وأحنق أضعاف ذلك على الذين يريدونني على أن أذعن لأحكام القدر ما دمت لا أملك لدفعها حيلة، ولا أعرف لتغييرها وسيلة. إلا بعد لأولئك الخاطئين وسحقاً!

أرود مسارح الوادي، وأجوس خلال الغاب، حتى إذا دانيت عريش البستان ووجدت شرلوت وإلى جانبها البير خذلتني قواي، وثقلت علي رجلاي، وأخذني من الطرب ما يأخذ الملموم(126) وأصابني من الهذيان ما يصيب المحموم، فآتي من سفساف القول وسخف الفعل فنوناً وضروباً. حتى قالت لي الغداة شرلوت: «نشدتك اللّه إلا ما أقلعت عن مثل ما فعلت بالأمس! إنك بمثل هذا المرح البالغ تملأ قلبي رعباً»، ولكني أصارحك ـ والأمر بيني وبينك ـ إني أرتقب ساعة يخرج ألبير إلى عمله فأسرع إليها، ولا تسل عما أجد من برد السرور ولذة السعادة إذا وجدتها في المنزل وحيدة.

8 أغسطس

عفواً يا وليم وصفحاً! ما كان يدور في خلدي حين قلت ما قلت في أولئك الذين يريدوننا على أن نذعن لأحكام القدر أنك تتابعهم على هذا الرأي. وحقيقة الأمر إنك مصيب بيد أن لي عليك اعتراضاً، وهو أن من النادر أن تجد الحوادث والأِشياء في هذا العالم محدودة الفروق خاضعة لقانون «نعم» أو «لا» على إطلاقه. فإن الفرق بين العواطف وطرائق العمل كالفرق بين الأنف الأقنى والأنف الأفطس(127). لعلك لا تنقم مني وقد قبلت مبدأك ـ أن أحاول التخلص من برهانك القاطع ذي الحدين المتباينين: «نعم» أو «لا».

تقول إما أن أكون على أمل من شرلوت أو على يأس. فإن تكن الأولى فأولى بي أن أسير في طريقها وأسعى إلى تحقيقها. وإن تكن الأخرى فخير لي أن أمضي العزم على الإفلات من ربقة هذه العاطفة المشئومة التي ستنهك قواي وتطفئ سراج حياتي.

هذا كلام يستخفه اللسان وتسيغه الآذان، ولكن بينه وبين العمل مسافة بعيدة. هل تستطيع أن تحمل عليلاً يذويه الداء ويضويه في دئوب وبطء على أن يضع في الحال حداً لأسقامه وآلامه بطعنة خنجر؟ إن ذلك الداء الذي أوضعه وأضرعه قد سلبه فيما سلب قوة العزيمة على الخلاص منه.

تستطيع أنترد علي بتشبيه منطبق على هذه الحال، وهو أنا لا نعرف رجلاً تبلغ به الغفلة أن يتردد في بتر ذراعه إذا كان بقاؤها يشفي به على الخطر ويهجم به على الموت. إنا كذلك لا أعرف هذا الرجل، ولكنا لا تتقارع بالتشابيه ولا تتجادل بالأمثال، وحسبك ذلك.

نعم يا وليم! لقد تمر بي لحظات أشعر فيها بالقدرة على وضع ذلك العبء الذي أنقض ظهري وناء به(128). ولو كنت أدري أين أذهب لذهبت، ولكني لا أعلم لي مغدى ولا مراحاً.

في مساء اليوم نفسه

وقعت اليوم في يدي مذكرتي اليومية بعد أن أهملتها زمناً، فأدهشني أن أراني أتقدم في هذه الطريق خطوة خطوة على بصيرة وإدراك! وأعجب العجب أن أرى حاضر أمري وحرج موقفي، ثم لا أسلك إلا مسلك الصبية الأغرار! وهأنذا اليوم أبصر حالي وأعرف مآلي ثم لا أجد في ظواهري ما يدل على تحسن وإصلاح!

10 أغسطس

كان من الميسور لو لم أكن محمّقاً مأفوناً أن أعيش عيشة رغيدة، وأن أحيا حياة سعيدة. ذلك لأن من النادر أن يجتمع لامرئ ما اجتمع لي الآن من أسباب المسرة ووسائل الأنس. ولكن وا أسفاه! أن سعادة القلب لا تتعلق إلا به، ولا تطلب إلا منه، ولا توجد إلا فيه. فأنا عضو في أسرة من كرائم الأسر، يحنو علي الوالد حنوه على ولده، ويجلني الأبناء إجلالهم لوالدهم، وتحبني شرلوت... ويودني ألبير، ذلك الرجل العظيم الذي خالصني الود وصادفني الإخاء فلا يكدر صفوي بإدلاله، ولا يؤلم نفسي بإغفاله، ولا يختص بحبه بعد شرلوت سواي. غير أنني مع كل هذا أرى بيني وبين سعادة النفس أمداً بعيداً.

وليم! إنه ليسرك وأيم الله أن تسمع إلي وإلى ألبير ونحن نتحدث عن شرلوت أثناء النزهة، فلا يتصور متصور موقفاً هو أبعث على الضحك من موقفنا، ولكنه على ذلك طالما استوكف دموعي.

حدثني عن أم شرلوت وقص علي نبأها وهي في سياق الموت تلقى زمام البيت ومقاليد الأطفال إلى ابنتها، وتجعلها هي في ذمة ألبير وعهده. وذكر كيف خُلقت شرلوت منذ يومئذ خلقاً جديداً، واصبحت بفضل عنايتها بتدبير بيتها واهتمامها بتربية إخوتها أماً حقيقية لا تنفق دقيقة واحدة من حياتها في غير ملاطفة أطفالها، أو مزاولة عمل من أعمالها، من دون أن تفقد شيئاً من بشاشتها وأسجاح خلقتها. كان يحدثني بكل ذلك وأنا أسير إلى جانبيه أقطف الأزهار من حفافي الطريق وأؤلف منها طاقة جميلة... ثم أطرحها في النهر الذي يتدفق أمامنا فتذهب مع التيار راقصة مرجحنة...

لا أدري أقلت لك أنّ ألبير باق هنا أم نسيت. إنه حصل بفضل زلفاه لدى بلاط الأمير على عمل مربح في ولهم. والحق أن ألبير تميز على نظرائه في إجادة العمل ورعاية النظام وحب المثابرة.

12 أغسطس

من الحق أن ليس فيمن تحمل الأرض أطيب قلباً ولا أنبل نفساً من ألبير. لقد كان بيني وبينه بالأمس مشهد غريب. وذلك أنّ نفسي حببت إلي أن أجول جولة على ظهر الجواد في الجبل (حيث أكتب إليك الآن) فذهبت إلى ألبير أستأذنه وأودعه. وبينما أصعد النظر في غرفته وأصوبه إذ لمحت عيناي على الحائط غدارتين، فطلبت إليه أن يعيرني إياهما لأتسلح بهما في جولتي. فقال لي: هما بين يديك، ير أنهما فارغتان. فإذا شئت أن تحشوهما، فإني لا اقتنيها إلا صورة فحسب. فتناولت إحداهما. واستمر ألبير يقول: «أخذت على نفسي ألا أدع غدارتي محشوة منذ وقع لي من جراء ذلك ما وقع».

فاستشرفت نفسي إلى أن يقص علي ذلك الحادث فقال: «قضيت ثلاثة أشهر في أسرة صديق لي في الريف، وكان في حوزتي غدارتان تركتهما فارغتين لعدم الحاجة إليهما. ففي عصر يوم من الأيام مطير تمثل في خاطري لسبب لا أعلمه أن داهماً سيدهمنا الليلة، وأنا سنحتاج إلى الغدارتين. فدفعتهما إلى الغلام ليجلوهما ويحشوهما. فلما فرغ من عمله

صوب الغدارة إلى فتاة خادم يريد أن يخيفها مزاحاً ودعابة. فقضى اللّه أن تنطلق الغدارة وتصيب يمنى الفتاة فتذهب بإبهامها. فلقيت ما لقيت من عويل الفتاة وشكواها، ثم غرمت ثمن العلاج للجرّاح فكان ضغثاً على أبّالة(129). فعاهدت اللّه ألا أدع في بيتي سلاحاً محشواً بعد الساعة... ولكن ماذا تنفع الحيطة أو يدفع الحذر واللّه قد حجب عنا علمه فما تدري نفس ما يخبئ لها الغيب من مقدور الخطر؟ ولكن..».

ستعلم أني أحب هذا الرجل وأجله إلا إذا أخذ يكرر لاكنّاته(130) ويكثر من استدراكاته واستثناءاته. لا أنكر أن لكل قاعدة شواذ، ولكنه رجل صدوق عدل يضن بالحق أن يمسخ أو يشوه. فإذا ما ظن أنه هجم بالكلام من غير تريث، أو ألقى الخبر على رسيلاته(131) من غير تثبت، أقبل يحدده ويحوره، فيحذف منه ويضيف إليه حتى لا يكاد يدع من الفكرة الأولى شيئاً.

وجد الفرصة سانحة ومجال القول واسعاً فدفق البحث وعمق الموضوع على عادته. فتركته يقول وأسلمت نفسي لبلابل الصدر وهواجس الهم، ثم انتبهت مذعوراً فصوبت الغدارة إلى ما فوق عيني اليمنى من الجبهة.

لفتت هذه الحركة الباغتة نظر ألبير فوضع الغدارة من يدي وقال ممتعضاً: ما معنى هذا؟ فقلت له: إنا غير محشوة. فقال لي: ولو كانت كذلك فما معنى هذا! أنا لا أستطيع أن أتخيل إنساناً يبلغ به الحمق أن يمزق رأسه برصاصة. إن هذه الفكرة وحدها تشعر قلبي خشية وفزعاً.

فصحت به قائلاً: ما بالكم أيها الناس لا تكادون تذكرون شيئاً غلا إذا قلتم: هذا حمق وذاك عقل، وهذا طيب وذلك خبيث؟ ما نفع هذه الكلمات وما أثرها؟ هل استنبطتم دخائل النفوس واستخرجتم مخبآت الأمور؟ أم هل استجليتم غوامض الأسباب التي أنتجت هذه الأعمال وجعلتها قضاء لا مرد له ولا محيص منه؟ أنكم لو فعلتم ذلك لما تسرعتم في الحكم ولا تعرضتم للخطأ.

فقال ألبير: لعلك توافقني على أن من الأعمال ما يعد جناية مهما تكن الأسباب التي بعثت عليه ودفعت إليه. فلمت إليه قوله اقتناعاً به، ولكنني عقبت عليه قائلاً: إني لأجد كذلك لهذه القاعدة شواذ. فالسرقة جريمة، ولكن الرجل الذي وجد أهله وبنيه يتضاغون(132) من الجوع، ويترامون في أحضان المنية من السغوب(133) فدفعته الرغبة في إنقاذهم إلى السرقة، يستحق الرحمة ولا يستوجب العقوبة. من ذا الذي يبتدر بالوقيعة رجلاً رأى بعينه المنكر على فراشه فملكته سورة الغضب وأزدهته نشوة الحمية فقتل الزوجة الخائنة والمغوي الدنيء؟ ومن ذا يكون أول الراجمين فتاة استسلمت لمحظور الغرام ومقدوره وهي في عماية اللذة وسكرة الحب؟! إن قوانيننا نفسها وهي المتحذلقة المتصلبة تدركها الرحمة في مثل هذه الأحوال فتقف التنفيذ وتغمد سيف العدل.

فقال ألبير: هذا شيء آخر يختلف كل الاختلاف عما نقول. فإن الرجل الذي يتملك هواه قياده، يسلبه عقله ورشاده. وأذن لا تنظر إليه إلا كما ننظر إلى سكران أو مجنون.

فصحت به باسماً: لله أنتم أيها العقلاء والأخلاقيون! تظلون هادئين جامدين أمام الهوى والسكر والجنون. تؤنبون السكير بلسان السخرية، وتدعون(134) المجنود بيد المقت، وتتحامون جانبه وتصدون عن سبيله فعل الكاهن، وتحمدون اللّه حمد الفريسي(135) على أن خلقكم على غير شاكلة هؤلاء الناس.

لقد سكرت غير مرة؛ وكانت أهوائي في كل سكرة تمت إلى الجنون بسبب، ولم يعقبني ما فعلت خجلاً ولا ندماً. بل استطعت أن أفهم إلى حد محدود كيف اضطر بعض الناس في كل زمان أن يرموا الأفذاذ والنابغين بالسكر والجنون إذا قاموا بأعمال عظيمة كان من المظنون ألا تصل إليها قدرة وألا يعلق بها سبب.

كذلك في الحياة العادية لا تجد أثقل على الأسماع ولا أشق على النفوس من أن يقول الناس كلما رأوا رجلاً قام بعمل خطير أو نبيل أو مفاجئ: هذا سكران! هذا مجنون!

إلا أن أولى الناس بالخجل لأولئك الذين صاموا عن العمل ولم يفطروا، وسموا العجز عقلاً حين هموا ولم يقدروا!

فقال ألبير: تلك إحدى ترهاتك، وصورة باطلة من تصوراتك. إنك تبالغ في كل شيء. ولقد أخطأت هذه المرة على الأقل في موازنتك الانتحار وهو موضوع الحديث بالأعمال العظيمة؛ وهيهات أن يعده الناس إلا خوراً وضعفاً، فإن أسهل على المرء أن يذوق الموت مرة، من أن يتحمل طويلاً آلام الحياة المرة.

هممت أن أقطع سلسلة الحديث لولا أن ملكت نفسي ورددتها على ما تكره. فإنه لا شيء أملأ لجوفي غيظاً من أن يبادرني المخاطب برأي مستعار لا يسفر عن معنى ولا يجلى عن غرض، على حين ينبعث كلامي إليه من سويداء قلبي وأعماق ضميري! على أن ذلك ليس بدعاً من الأمر، فلقد سمعت كثيراً وغضبت كثيراً فما نفع السكوت ولا أجدى الغضب.

رددت على ألبير في شيء من الحدة قلت له: أتدعو ذلك خوراً وضعفاً؟ إني أعيذك باللّه أن يخدعك ظاهر الأمر. هل تستطيع أن تتهم بالضعف شعباً يرسف في قيود الاستبداد، ويئن تحت نير الاستعباد، إذا انفجر في وجه المستبد فكسر أغلاله وقطع سلاسله؟ أم هل تجرؤ على أن تصم بالوهن رجلاً راعه أني رى بيته طعمة للنار فاستجمع قواه وحل من الأثقال ما يعجز عن تحريكه وهو آمن هادئ؟ بل كيف يكون خواراً ضعيفاً من أهين في نفسه، فعصفت النخوة في رأسه، وأخرجه الغضب عن طوره، فحمل على ستة أقران فنثرهم على الأرض نثراً؟ فإذا كان من يؤثر القوس يدعي قوياً، فلم يسمى ضعيفاً من يقطعها؟ وإذا كان الجهد العظيم دليلاً على القوة، فكيف يكون الجهد المضطرم الحاد دليلاً على الضعف؟

فرشقني ألبير بنظرة ثم قال: خفض عليك فليس في الأمر ما يغضب. إن المثل التي سردتها ليست على أني أبرهن الأشياء بطريقة أقرب إلى الهراء والهذر. فلننظر بعد إذا كنا نستطيع أن نخبر بطريقة أخرى سر ما يهجس في خاطر المنتحر حينما يعقد النية على أن يلقي عبء الحياة عنه وهو على الجملة مقبول الحمل محمول الثقل: فإن من الصعب أن تتكلم بعدل ودقة عن عواطف لا نجيد فهمها ولا نستبطن كنهها.

إن الطبيعة البشرية محدودة، فلا تتحمل السرور والحزن والألم إلا بقدر. فإذا كلفت فوق ما تطيق وحمّلت أكثر مما تستطيع، فدحا الحمل وأدركها الأعياء فترزح(136). فليس الغرض إذن أن نعرف الرجل أقوي هو أم ضعيف، وإنما سبيلنا أن نعرف هل يقوى على أن يتحمل مقدار الألم؛ وسواء عندنا أكان ذلك الألم مادياً أم أدبياً.

وقصارى القول إني أجد من الغريب أن يسمى جباناً من قتل نفسه، ولا يسمى كذلك من قتلته حمى خبيثة!

وكان حالهما في الحكم واحدة

لو احتكما من الدنيا إلى حكم

فصاح ألبير قائلاً: لقد رأيت رأياً بديعا(137)، وخالفت فيه الناس جميعاً. فقلت له: ليس الخلاف على قدر ما تظن، فإنا متفقان ولا ريب على أنهم أطلقوا الداء الثبات(138) على كل مرض ينهك الجسم ويهد القوى ويحل العزيمة ويدع المريض وقيذا(139) لا يثوب إليه جسمه، ولا يعود بأية حال عزمه. فلنطبق حال الجسم على حال الفكر، ولننظر إلى الرجل وقد ضاقت حدود فكره، وحُصرت قوى عقله، كيف تؤثر في ذهنه الانفعالات، وتستقر به الأفكار، وتتصرف به العواطف حتى ينبعث من قلبه هوى لا يزال يعظم ويقوى حتى يحرمه نعمة الهدوء ويسلبه قوة الفكر ويفضي به إلى الموت.

إن من العبث أن يحاول العقل الهادئ شرح هذه الحال أو إرشاد هذا البائس؛ فإن الصحيح المعافى لا يستطيع أن يمد العليل الضارع بنفحة من صحته وقوته.

رأى ألبير أني أعمم الكلام ولا أخصصه، فذكرته بحادث فتاة وجدت بالأمس غريقة وقصصت عليه نبأها:

«فتاة طيبة النفس، عذبة الخلق، دبت في مدارج الخدمة وشبَّت، تقضي الأسبوع بعد الأسبوع في أعمال واحة وحركات متشابهة، ولا تعرف مُتع الحياة ولهو العيش إلا أن تخرج

مع أترابها في بعض أيام الآحاد إلى ضاحية المدينة، وعليها ما اقتنته بتدبيرها من حلي وزينة، ترفه عن النفس أحياناً بالرقص في أيام الأعياد الكبرى، وما بقي من أوقات الفراغ تقتله بالحديث إلى جاراتها في أسباب مشاجرة، أو في اغتياب امرأة. ولكن طبيعتها الحادة، ونفسها الهائجة، وملاطفة الرجال لها، أشعرتها بالحاجة إلى لذة أخص وسرور أتم. فأصبح لهوها السابق في نفسها تفه المذاق عديم اللذة، حتى واجهها القدر برجل من رجال اللهو، فاندفعت إليه مرغمة بعاطفة خفية لا تغالب، ووصلت به مذ عرفته أسباب رجالها، ونسيت العالم بأسره، فلا تسمع غيره، ولا ترى سواه، ولا تحس إلا إياه، فهو وحده الموجود والمعبود والمشتهى.

لم يفسد طباعها عبث الدلال ولا سخف الإعجاب، فمضت إلى الغابة المرجوة لا تلوي على شيء. طمعت أن تملكه، وأن تجد في الاقتران به ما يعوزها من أسباب السعادة، وأن تذوق ما تبغي من لذائذ الحياة مجموعة في وقت واحد. وعود متكررة طبعت أمانيها بطابع اليقين، ومداعبات جريئة هاجت رغائبها، وملكت على نفسها مذاهبها، فغرقت في بحر من الذهول، وسبحت في جو من السعادة.

انتظرت حتى لم يعد للانتظار موضع، وصبرت حتى لم يبق في قوس الصبر منزع. فلما فتحت ذراعيها ونهضت تعانق الأمل، وتضم السعادة، وتقبل الفوز، إذا بالحب قد ذوى وبالحبيب قد رح!

ها هي ذي مسلوبة العاطفة مفقودة الرشد واقفة على شفا اللجة يكتنفها الظلام من كل جانب، وليس لها في حاضرها عزاء ولا متسقبلها رجية! غادرها من تحب وهو الذي كانت تعيش لأجله، وتتعلق من أسباب الحياة بحبله، فأعماها اليأس وأضلها القنوط فلم تر ذلك العالم الفسيح الممتد، ولم تفكر أن في الناس عوضاً عمن هجر، وخلفاً ممن غدر، بل شعرت أنها وحيدة العالم، وطريدة الدهر، فدلهها الحزن، وجاش في صدرها الهم، فألقت بنفسها في اللجة ليدفن الموت آلامها، كما دفنت الحياة آمالها».

تلك يا ألبير حال هذه البائسة وهي حال كثير من الناس! أفلا تجد أن ما حدث فيها هو بعينه ما يحدث في حال المرض؟ لا مخرج للطبيعة من ذلك التيه الذي تتصارع فيه القوى وتتنازع فيه الطبائع. لذلك كان الموت أمراً محتوماً لا دافع له ولا وعي منه.

يا بؤس لمن يقول حين يرى هذه البائسة في وسط اللجة: «يا لها من حمقاء! كان خيراً لها أن تنتظر؛ فإن الزمن بلسم القلوب الدامية. ولو صبرت لهذا الخطب لتبدد يأسها، وتجدد أنسها، ووجدت في الناس المخلص الأمين!» ذلك ولا ريب أشبه بقول القائل: «ما أشد حماقة من يموت بالحمى! لو انتظر حتى ثابت(140) إليه قواه، وطهرت أخلاط جسمه، وسكن فوران دمه، لكان اليوم حياً يرزق!».

لم ير ألبير تشبيهي واضحاً جلياً، فوجه إلي بعض اعتراضات منها أنني لم أتكلم إلا عن فتاة ساذجة جاهلة، وأنه لا يستطيع أن يفهم كيف يعذر في مثل هذه الحال رجل ذو عقل وبصيرة يعيش في دائرة أوسع، ويدرك بثاقب رأيه وبُعد نظره حقائق الأشياء وعلائقها.

فقلت له: يا صاح! إن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وإن قيل الذكاء الذي أوتيه لا يغني عنه فتيلاً إذا ما تحكم هواه وهاجت ميوله ورأى نفسه محصوراً في حدود الإنسانية ومآزقها. وأكثر من ذلك أن... لندع بقية الكلام إلى مرة أخرى. ثم أخذت قبعتي ونهضت والقلب مفعم زاخر. ثم افترقنا وكلانا لا يفهم صاحبه. وكذلك الناس في هذا العالم قلما يفهم بعضهم بعضاً!

15 أغسطس

ليس في العالم ما يجعل الإنسان ضرورياً لأخيه الإنسان إلا المودة. أشعر الشعور كله أن شرلوت كان يحزنها فقدي، وأن أطفالها ما كانوا يفكرون إلا في عودتي إليهم بعد الغد.

ذهبت اليوم إلى شرلوت أصلح بيانها فلم أستطع أن أتم العمل، لأن الأطفال أرادوا أن أقص عليهم حكاية من حكايات الجان؛ وشرلوت نفسها طلبت إلي أن أسرهم وأرضيهم، فقطعت

لهم خبز عصورهم (وقد أصبحوا يفضلون تناوله من يدي على تناوله من يد شرلوت) ثم قصصت عليهم حكاية «الأميرة المخدومة بيد مسحورة» وهي من أحسن القصص وأغرب الأنباء. وأؤكد لك يا صديقي أني تعلمت من ذلك القصص شيئاً كثيراً، وقد أدهشني وآثار عجبي ما أرى من تأثير ذلك فيهموسلطانه عليهم، حتى إذا ما اضطرني النسيان إلى الاختلاق أو التزيد فحكيت الحادثة على غير وجهها الأول وقالوا: لقد رويتها من قبل على غير هذا الوجه. فأنا أروض نفسي الآن على أن أسرد الحكاية سرداً دون تغيير ولا تحوير كما تسرد حبات السبحة. دلني ذلك على أن المؤلف الذي يتناول قصته في طبعتها الثانية بالتصحيح والتنقيح إنما يضر عمله ولا ولا ينفعه؛ فإن الطبعة الأولى صادفت نفوسنا وهي طيعة مستعدة، والناس جبلوا على أن يصدقوا ما لا يصدق، ويعتقدوا ما لا يتحقق؛ فإذا رسخت هذه المعتقدات في أذهانهم، وبلغت حظها من إيمانهم، فالويل كل الويل لمن يريد محوها، أو يحاول اقتلاعها.

18 أغسطس

أكذلك قضى اللّه أن يصبح ما كان مصدراً لسعادة المرء ورخائه، علة لبؤسه وشقائه؟ أليس عجيباً أن الشعور المضطرم الذي كان يصل قلبي بالطبيعة، ويغمر نفسي بالنعيم واللذة، ويجعل كل ما يطيف بي جنة بهيجة، يعود عذاباً بئيساً لا يخف، وشبحاً مخيفاً لا يغيب؟

كنت فيما مضى حين يمتد طرفي من فوق الصخرة إلى ما وراء النهر فيقع على الوادي الخصيب وما يكتنفه من الهضاب الخضرة، أرى كل شيء حول يينبت ويزهر. وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوح من أ سافلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظلة محانيها بالغابات الأنيقة، وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهتز، وتتراءى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وجماعات الذباب ترقص طربة مرحة على خيوط الشمس الأرجوانية الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فأرى الأشنان(141) يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم(142) ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل، فيكشفان لي عن ذلك النبع

المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة؛ أقول حيناً كنت أرى وأسمع هذه الأشياء كان قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة. وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس، ويخيل إلي أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملأها حياة جديدة.

كنت أرى حولي الأطواد(143) الشاهقة ترتد عنها الأبصار كليلة، وأمامي الوهاد العميقة تقتحمها السيول غب العاصفة، وتحتي الأنهار الطامية تنحدر أمواجها مسرعة، وأسمع الآكام والآجام، ترن أجوافها رنيناً، وأنظر في أحشاء الأرض فأجد القوى الطبيعية الخفية يعمل بعضها في بعض فتتولد وتتجدد ثم تفيض وتنتشر فوق الأرض وتحت السماء، وأبصر أنواع المخلوقات يموج بعضها في بعض على أشكال شتى وصور متباينة، وبني آدم يلوذون جماعات بالخصاص والأكواخ، ثم يبتنون منازل ثابتة ويتخيلون أنهم يهيمنون على العالم كله!

مسكين أيها الأحمق! ترى كل شيء صغيراً لأنك صغير!

في جميع الكائنات ـ من صياصي الجبال المنيعة إلى أغوار الفلوات المجهولة، ومن بداية البر إلى نهاية البحر ـ ينبث روح الخالق الأزلي الذي لا ينقطع إيجاده، ولا يبطئ إمداده، ولا تحرم ذرة من ذرات الهباء من قوة روحه وسر كلمته. آه! كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواز القضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل البحر الخضم الذي لما يكشف سره الإنسان لأشرب من اللانهاية ـ كأساً دهاقاً(144) تبسط القلب وتنعش المشاعر! وأشعر لحظة واحدة ـ على قصوري وضعفي ـ بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته.

أخي إن ذكرى هذه الساعات الذاهبة لأخلق أن تردني سعيداً. وأن ما أبذل من الجهد في إحياء أثرها الأسمى في قلبي وشرحه لك ليسمو بنفسي إلى أعلى من مكانها! ولكنه وا أسفاه يجعلني أشعر الآن بسوء حالي وحرج موقفي أضعافاً مضاعفة.

يخيل إلي أن قد هُصرت الستور وانجابت[145] الحجب أمام نفسي فرأت مسرح الحياة الذي لا ينتهي ولا يحد قد تحول إلى حفرة ضيقة أمامي وقبر فاغر[146] فاه إلي.

هل تستطيع أن تقول: «هذا الشيء موجود» وأنت ترى كل شيء يمر ويختفي أسرع من لمح البرق، وتجد من النادر أن مخلوقاً تطول حياته حتى تخمد قواه وينطفئ سراحه! أما يبتلعه السيل الآتي[147] ويدفعه التيار الجارف حتى يمزقه على صخور الحياة!

لا تمر لحظة من الزمن دون أن تفنيك أنت ومن حولك من أهلك. ولا تمر لحظة دون أن تدمر أنت أو تُرغم على التدمير. إن خروجك إلى التنزه ماشياً وهو أبرأ ما يكون يودي بحياة مئات من الديدان الصغيرة. ولخطوة واحدة من خطواتك تدمر عشرات من مساكن النمل وقد تحمل في بنائها رهقاً شديداً، وتسحق هذا العالم الصغير النشيط بأسره.

ليس ما يؤثر فيّ ويشق علي ما أرى من مصائب العالم النادرة التي تجتاحكم، ولا الفيضان الذي يغمر قراكم، ولا الزلزال الذي يخسف مدائنكم، وأنا هو تلك القوة المدمرة الكامنة في الطبيعة جمعاء، تلك القوى التي لا توجد شيئاً إلا ليهلك ما يجاوره ويهلك.

كذلك أسير في هذه الحياة يميد بي القلق، ويجيش بصدري الهم، بين السماء والأرض وما فيهما من القوى الفعالة فلا أرى إلا وحشاً هائلاً يأكل أبداً كل شيء، ثم لا يعيد خلقه إلا ليعيد أكله.

21 أغسطس

عبثاً كنت أبسط ذراعيّ إليها ساعة استيقظت صباح اليوم من حلم طاهر مؤلم! وباطلاً كنت أبحث عنها في الليل على مرقدي وقد أوهمني الحلم السعيد البريء إني جالس معها في المرج أنعم بالحديث إليها، وأغمر بالقبل بديهاً! وألهف نفسي على وأنا بين اليقظة والنوم أتلمسها في السرير ضلة فترجع إلى هذه الحركة مشاعري بغتة فأستيقظ...

فينبجس[148] من قلبي المكروب سيل من الدمع، وأئن أنين البائس حين أسف[149] النظر في صفحة الغد فلا أرى إلا سواداً كثيفاً وظلاماً مخيفاً.

22 أغسطس

أنا تعس منكود الحظ يا وليم! لقد فترت قواي العاملة، وخمدت حواسي المضطرمة، وآل بي الهم إلى هود لازم، واضطراب دائم. لا أستطيع المكث فارغاً. ولكني غير كفء لعمل ما. عدمت الحساسية والخيال، فلا تزدهيني أعاجيب الطبيعة، ولا تبعث الكتب في نفسي غير الاشمئزاز والضجر. كل شيء يعوزنا ولا ريب إذا ما أعوزتنا أنفسنا. شهد اللّه أني تمنيت مراراً أن أكون أجيراً ليكون لي في الصباح حين أستيقظ شيء أؤمله. وضرورة تدفعني إلى ما أعمله. وكثيراً ما أغبط ألبير حينما أراه غريقاً في الأوراق والأضابير[150] إلى أذنيه. ويخيل إلي ِأني لو كنت مكانه لعشت سعيداً.

أثَّرت فيّ هذه الفكرة حتى حدثت نفسي أن أكتب إليك وإلى الوزير أسأله مثل هذا العمل في السفارة. وهم لا يمنعوني هذا السؤال كما تؤكده لي أنت وكما أعتقده أنا. فإني أرى للوزير انعطافاً إلي منذ طويل، وطالما نصح لي أن أشغل نفسي بعمل ما. ولا أكذبك فقد هممت مراراً أن أفعل، ولكني إذا استأنفت الفكر وتسلفت النظر وتذكرت حكاية الفرس الذي أضر به طول الجمام[151] فأسلم نفسه للسرج واللجام، فكده فارسه وعناه حتى لصب[152]جلده، وارتهكت مفاصله، وقفت حائراً لا أدري ما أصنع. ولكن رويدك يا صديقي! أليس ذلك الطموح الذي أحسه في نفسي إلى تغير الحال وتبدل الأمر قلقاً باطناً ومرضاً دخيلاً سيصحبني إلى كل مكان؟

28 أغسطس

لو أن ما بي من الداء يرجى برؤه، لكان في كرم هؤلاء الناس طبه وشفاؤه.

كان هذا اليوم ذكرى مولدي، فما كاد الصبح يفتر حتى صبَّحني رسول ألبير بصرة صغيرة، ففتحتها فإذا فيها عقدة من العقد الوردية التي كانت على منطقة شرلوت يوم لقيتها أول مرة وقد سألتها إياها مراراً، ومجلدان من القطع الصير فتحتهما فإذا هما ديوان هوميروس من طبعة «ديتيطس» وقد كنت أرغب في الحصول عليها منذ طويل لأستبدلها بطبعة «أرنستي» فإنها ترهق ذراعي كلما خرجت أتنزه. فأنظر كيف يدنوني من منالي، ويصلون يدي بآمالي! وكيف يتحينون الفرص لهذه الألطاف الودية، وهي أثمن ألف مرة من تلك الهدايا الفاخرة التي يشفعها الإعجاب ويتبعها المن فتنال من كرامتنا وعزتنا.

أنحيت على تلك العقدة بالقبل، واستنشيت في كل قبلة ذكرى ما نعمت به في تلك الأيام السعيدة على قصرها من غفلات العيش ولحظات الأنس؛ تلك الأيام التي لا تشرق في سماء العمر إلا مرة!

كذلك يا وليم أزهار الحياة لا تعمر طويلاً، وإن كثيراً من تلك الأزهار ما يذوي فلا يترك أثراً، وأن قليلاً منها ما يصلح فينتج ثمراً، وقليل من ذلك الثمر ما يبلغ يوم نضجه وينعه، على أنه بقي من تلك الثمرات ما يكفي. فمن ذا يستطيع يا صاح أن يشيح بوجهه(153) عن هذه الثمار اليانعة فيدعها تعطب دون أن يتمتع بها وينعم؟

وداعاً يا أخي! إن الصيف عندنا جميل بهي! ولله ما أجمل أن أتسلق الشجر في بستان شرلوت وفي يدي مجناة أو عصا طويلة فأرمي بها ما على الأغصان من الكمثرى وشرلوت واقفة أسفل الشجرة تلقف بيديها ما يسقط من الثمر!

30 أغسطس

ويلك أيها البائس؟ لعل بك مسا من خيال! ألست تخدع نفسك بنفسك؟ إلى أين يقودك هذا الهوى المبرح الذي استحكمت قيوده وتباعدت حدوده؟

أصبحت يا وليم لا أرفع الصلاة إلا لها، ولا أتخيل إلا صورتها وشكلها، ولا أنظر ما حواليّ من الأشياء إلا مضافاً إليها ومرتبطاً بها. وتلك حال تشعر النفس بالسعادة حيناً. فإذا ما نُزعت من جوارها، وحيل بيني وبين استحضارها، فلا تسل عما يملأ العين ظلاماً ويفعم القلب وحشة! أواه يا وليم! لو كنت تدري أين يذهب القلب بأخيك في أكثر أمره؟... حينما أجلس إليها ساعة أو ساعتين أمتع العين بقسامة وجهها ورشاقة حركاتها، وأشنف الأذن برقة عبارتها وعذوبة كلماتها، تشعر مداركي شيئاً فشيئاً بتوتر شديد وضغط عنيف، فيظلم بصري، ويثقل سمعي، وأحس خناقي يضيق كأنما أخذت به يد قاتل! فيجهد القلب أن يخفف من ارتباكي، وينفس عن إدراكي، فيثور ثائره، ويشتد وجيعه، ولا يزيد الأمر إلا اضطراباً وقلقاً. في أكثر أيامي لا أدري يا وليم أفي هذا العالم أنا أم في غيره. نعم أعرف نفسي، ويثوب إلي حسي، إذا اشتد بي الحزن، ولاع قلبي الهم، ولم أظفر من شرلوت بقليل عزائها، فلا أغمر يديها بسيل دموعي، ولا أخفف بحديثها حر ضلوعي. حينئذ أهيم على وجهي في الحقول والأودية، وأجد من اللذة أن أتسلق جبلاً صعب المرتقى، أو أتيه في جوف غابة مضلة، أو أخبط في وسط الأدغال الشواجن(154)، فيدمي الشجر جسمي، ويمزق الشوك قدمي وهناك أحس بشيء من الراحة قليل. وكم مرة قعد بي الأعياء والظمأ في الطريق فأستلقي على الحصباء، أو أجلس تحت الليل في الغابة المقفرة على جذع شجرة عوجاء! أجلس يا وليم لأهاون قليلاً رجلي المرضوضة والبدر في كبد السماء يتلألأ فوق رأسي، فتأخذني عيناي في ذلك الضوء المريب فأنام نوم اللاغب القلق(155)!

أواه يا وليم! إن الاعتكاف في حجرة ضيقة موحشة، والتمطق(156) بمنطقة ذات أشواك حديدية قائمة، وتعذيب الجسم بالأسنة الحادة النافذة، لأروح لنفسي من هذا العذاب الذي يذيبها ويضويها.

وداعاً يا وليم! إني لا أرى لهذا الشقاء المبرم غاية إلا القبر.

7 سبتمبر

أجل! ليس من السفر بدا والحمد لله على أن أخرجتني من عماية الحيرة إلى نور اليقين، فقد مضى عليّ خمسة عشر عاماً وأنا أفكر في تركها. ذلك أمر محتوم. لقد ذهبت إلى المدينة ثانية تزور إحدى صواحبها... و... لا بد من السفر!

18 سبتمبر

لشد ما أكابد الليلة يا وليم! على أنني الآن أستطيع أن أتحمل كل شيء. إنني لن أراها بعد! وليتني أطير إليك، فأرتمي بين ذراعيك، لأشرح لك بانفعالاتي القاتلة، ومدامعي الهاطلة، ما هاجم قلبي وتشعب خاطري من العواطف! أنا أتململ أرقاً وقلقاً، أستنشق الهواء فلا أجده، وألتمس العزاء فلا أناله، ولا أتنظر غير الصباح، فإن الخيول ستغدو علي مطلع الشمس. وألهف نفسي! إنها نائمة نوم الخلي الهادئ لا تعلم أنها لن تراني عوض(157).

فارقتها الليلة مرغماً بعد ساعتين قضيناهما في الحديث ملكت فيهما نفسي، وكظمت علي جرتي(158) حتى لا ينم ظاهري بما أقصد. ذلك أن ألبير وعدني أن يكون هو وشرلوت في الحديقة بعد العشاء تواً، فسبقتهما غليها؛ ووقفت على مشرف تحت سرحتين من شجر القسطل(159) أشيع آية النهار ببصري وهي تغرب لآخر مرة على مرآي خلف ذلك الوادي الضاحك، وهذا النهر الهادئ. ولكم وقفت أنا وهي في هذا المكان جنباً إلى جنب نطالع معاً هذا المنظر الجميل! أما الآن...!

كنت أتمشى في ذلك الممشى العزيز علي قبل أن أعرف شرلوت فتحبسني فيه أكثر الأحايين جاذبية خفية. فلما تعارفنا كان سرورنا باجتماع هوانا على تفضيله عظيماً. والحق أنه من أشد ما رأت عيني جمالاً وسحراً. نجد لأول وهلة بين أشجار القسطل منظراً واسعاً ممتداً. وقد أذكر أني وصفت لك في رسائلي كل هذا: وصفت لك كيف يجد المرء نفسه إذا ما تقدم محصوراً بين صفين من أشجار الزان الباسقة، وكيف بدهام(160) الممشى قليلاً قليلاً بالخضرة النضرة كلما خاض في أحشاء الأجمة ا لمتصلة به، ثم ينتهي كل ذلك بسور صغير تشعر عنده بسحر العزلة وتأثير الوحدة. لا أزال أشعر بذلك التأثر الذي أحسسته حين

دخلت هذا المكان أول مرة أستجير به من حر الظهيرة. فقد خيل إلي أن هذا المكان لي مألف ومعهد؛ وأحسست أني في هذا الموضع سأشرب أما شهد الحياة وإما صاب الموت!

مضى عليّ نصف ساعة وأنا أغذي النفس بهذه الخواطر الحلوة المرة: خواطر الاجتماع والافتراق، وقد ذهلت عن كل شيء، حتى سمعت وقع أقدامهما صاعدين إلى المشرف، فدلفت إليهما مسرعاً، وتناولت يد شرلوت مرتجفاً وقبَّلتها، ثم صعدنا جميعاً إلى المشرف، وما علوناه حتى رأينا القمر بازغاً وراء الهضبة الشجراء، فمشينا تتساقط الحديث في موضوعات مختلفة حتى بلغنا الأجمة المظلمة، فولجتها شرلوت ثم جلست، وجلست أنا وألبير إلى جانبها. ولكني كنت من الاضطراب لا أستقر في مكان؛ فنهضت ووقفت إزاءها ثم مشيت طولاً وعرضاً ورجعت فأخذت مجلسي. تلك كانت حال اضطراب وهم لا يطمئن عليها الخاطر ولا تهدأ فيها النفس...

لفتتنا شرلوت إلى جمال ضوء القمر، وقد أنار أمامنا الممشى كله إلى أقصى أشجار الزان، فإذا منظر رائق يملك الأبصار ويجلب الأفئدة؛ وقد زاده أثراً وروعة أن ما حولنا كان في ظلمة حالكة. سكتنا هنيهة ثم بدأت شرلوت الحديث قائلة: «ما مشيت ليلة في ضوء القمر إلا تذكرت من مات من أهلي، وتفكرت في أمر الموت والحياة الأخرى. أنا سنحيا ثانية. ولكن ليت شعري يا فرتر هل نتراءى ونتعارف؟ ما رأيك في هذا الأمر وماذا في حسك منه؟» قالت ذلك بلهجة سامية مؤثرة. فقلت لها وقد اغرورقت عيناي بالدمع: سنتراءى يا شرلوت! أجل سنتراءى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم لم أستطع أن أزيد على ما قلت حرفاً.

لمَ سألتني يا وليم هذا السؤال على حين يملأ قلبي هم الفراق ولوعة النوى؟ استمرت شرلوت تقول: «وهل يعلم أحباؤنا الذين فقدناهم من أمورنا شيئاً؟ هل يشعرون بسعادتنا إذا سعدنا! وهل يدرون أننا نذكرهم بلسان وامق وقلب مشوق؟ آه! إن خيال أمي لا يبرح طائفاً حولي كلما جلست في تلك الليالي الهادئة وسط أطفالي وأطفالها، وقد ازدحموا من حولي كما كانوا يزدحمون من حولها. فأرفع إلى السماء طرفي المخضل بدموع الأسف،

وأتمنى لو تستطيع أمي أن تلقي علينا نظرة من وراء الحجب فترى كيف قمت بما وعدتها ساعة احتضارها من أن أكون لأطفالها أماً؛ ثم أهتف بها قائلة: مغفرة يا أمي المحبوبة إذا لم أكن لهم مثل ما كنتِ. على أنني قد بذلت لهم ما أستطيع، فهم مكسوون مغدوون فضلاً عن أنهم مدللون محبوبون. لو كنت تستطيعين أيتها القديسة العزيزة أن تري في أي مجتمع نحن نعيش. إذن لشكرت اللّه وحمدته على أن استجاب دعاءك وتقبل بكاءك، فبسط على أطفالك جناح رحمته، وأضفى عليهم ثوب نعمته وبركته».

قالت ذلك يا وليم! ومن يستطيع أن يعيد عليك ما قالت؟ وهل في مقدور تلك الأحرف الباردة الجامدة أن تعبر لك عن هذه الزهور السماوية لتلك النفس الملكية؟

تحرك ألبير فقطع عليها الحديث بقوله: لقد هاجت الذكرى أشجان نفسك يا شرلوت. أنا أعلم منزلة هذه الذكريات من قلبك، ونصيبها من حبك، إلا أني أتوسل إليك... فقاطعته شرلوت قائلة: «إنك لم تنس يا ألبير هاتيك الليالي التي كنا نقضيها جالسين جميعاً حول المنضدة الصغيرة المستديرة، وأبي غائب عنا في سفره، والأطفال قد أووا إلى مضاجعهم، وقد كنت تحمل معك في أكثر الليالي كتاباً مفيداً تقرأ لنا فيه، فيلهيك عن القراءة حديث تلك المرأة المحبوبة الذي يمتزج بالقلوب ويسري عن الخواطر. ألم يكن حديثها العذب أفضل من كل شيء؟ لقد كانت جميلة وديعة وطروبة نشطة. ولا يعلم إلا اللّه تلك الدموع التي كنت أذرفها حين آوي إلى مخدعي جاثية إلى اللّه مبتهلة إليه أن يجعلني شبيهة بها!».

فخررت ساجداً على قدميها، ورويت بمدامعي يديها، وقلت: «يا شرلوت، لتحل عليك وفيك بركة اللّه وروح أمك!» فضغطت يدي بيدها وهي تقول: «آه لو كنت عرفتها! لقد كانت خليقة بأن نعرفها». فأحسست أني أذوب وأفنى من هذه الجملة. فإني ما سمعت تقريظاً لنفسي هو أسمى وأجل من هذا. ثم سارت في حديثها تقول: «لقد عجلت إليها المنية وهي في ريق الشباب وزهرة العمر حين لم يكن لأصغر أولادها إلا ستة أشهر. كان مرضها قصيراً، وكانت هادئة مستسلمة لا يحزنها غير أمر أطفالها ولا سيما الأصغر. ولما زهقت(161) إلى الموت قالت لي: ائتني بهم، فأتيت بهم إليها. فأما الصغار فما كانوا

يعلمون شيئاً، وأما الكبار فقد أذهلهم الموقف ودلّههم الحزن فوقفوا جميعاً حول سريرها. فرفعت يدها إلى الله ودعته لهم وباركت عليهم ثم قبلتهم واحداً بحد واحد وأرسلتهم. ثم قالت لي: «أوصيك أن تكوني لهم أماً» فوعدتها بذلك. فقالت: حمَّلت نفسك يا بنيتي بهذا الوعد كثيراً، فإنك لا تدرين ما قلب الأم وما عينها، ولكن دموع الشكران والامتنان التي طالما سكبتها أمامي تدلني على عرفانك معنى الأمومة، وتقديرك عاطفة الحنان. فهي لبني أمك ذلك القلب الرءوم وتلك العين الكلوء(162)، وامنحي أباك إخلاص الوفي وطاعة الزوجة، فإن فيك سلوته وعزاءه».

ثم طلبت أن تراه، وكان قد خرج ليخفي عنا ألمه الذي عجز عن احتماله. والهف نفسي عليه! لقد كان الهم يستوقد صدره والألم يمزق أحشاءه. وقد كنتَ يا ألبير في الغرفة، فسمعت خطاك فسألت من أنت. فلما عرفتك أدنتك، ثم نظرت إلينا نظرة تنم على ما في نفسها من الطمأنينة والأمل في أنا سنكون سعيدين معاً. فطوقها ألبير بذراعه وقبلها قائلاً: «أجل أنا سعيدان، وسنظل كذلك إلى الأبد».

«وكان على ما تعهده فيه من رزانة ورصانة وهدوء مشترك العقل ذاهب اللب. أما أنا فقد ضاع رشدي وغاب صوابي! فانظر يا فرتر كيف تفقد هذه المرأة إلى الأبد! إن من الصعب على النفس أن ترى أعزاءها وأحباءها يغوصون في جوف البلى ويقبرون في ظلام العدم. وأشد الناس إحساساً بذلك الأطفال، فإن إخوتي لبثوا بعدها طويلاً يألمون ويشكون من «أن الرجال السود(163) قد خطفوا ماما».

ثم وقفت بالحديث عند هذه الجملة وانتصبت واقفة. فشعرت كأني صحوت من حلم، وأحسست أني مضطرب المشاعر مبلبل الخاطر، فبقيت جالساً قابضاً على يدها. فقالت: «هيا بنا، فقد آن لنا أن نعود»، وأرادت أن تجذب يدها إليها فأمسكتها بقوة ثم قلت: «أنا سنتراءى، ونتلاقى، ونتعارف، على أية صورة تكون».

أنا مسافر بطوعي واختياري، ولكني كلما تذكرت أن ذلك الفراق إلى الأبد ضاق ذرعي باحتماله.

وداعاً يا شرلوت! وداعاً يا ألبيرا أنا سنتلاقى... فقالت بلهجة المازح الطرب: «غداً أظن؟» فأثارت كلمة «الغد» في نفسي شعوراً غريباً لا قبل لي بتصوره. وا أسفاه! أنها كانت تجهل ساعة جذبت يدها من يدي أن... لقد هبطا إلى الممشى وبقيت جامداً أنظر إليهما يبعدان شيئاً فشيئاً في ضوء القمر، ثم ارتميت على الأرض واستسلمت للبكاء.

ثم نهضت بغتة وعدوت إلى آخر المشرف واطلعت فرأيت ثوبها الأبيض يطمع في ظلام الزيزفون الباسق وقد بلغت باب الحديقة. فبسطت ذراعيّ، وتدفقت عواطفي من عيني، ولكنها كانت قد توارت!

(2) البين: البعد.

(3) أشربت محبته: خالط حبه قلبي.

(4) اكتنه الشيء: بلغ كنهه أي حقيقته وغايته.

(5) يروضونها: يذللونها ويعودونها.

(6) الأناة: الحلم والوقار.

(7) التراث: الميراث.

(8) الخب: المكر.

(9) المقرور: البارد.

(10) الجنان: البستان.

(11) الصناع: الحاذق.

(12) الجوسق: الكشك بلغة العامة.

(13) مركوم: مجتمع بعضه فوق بعض.

(14) متوع النهار: غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(15) الكلأ: العشب.

(16) برأنا: خلقنا.

(17) الروح: الرحمة والمساعدة.

(18) نزية: حدة.

(19) الرؤى: جمع رؤيا وهي ما يوحيه اللّه في الخواطر أو في النواظر من الأشباح والصور.

(20) ميلوزين: جنّية خرافية نصفها امرأة ونصفها الآخر أفعى. يزعمون أنها بانية قصر أوزبنيان وحاميته. ومن عادتها ألا تظهر على برجه الأكبر إلا إذا حانت منية أحد من أهله.

(21) الدركة: المنزلة من السلم إذا اعتبرت النزول، ويقابلها الدرجة للصاعد.

(22) يريد العهود الأبوية حين كان للأب سلطان واسع على أفراد الأسرة الراشدين منهم والقاصرين.

(23) يتصافقون: يتبايعون.

(24) أي كل ابن يأخذ ابن أخت الابن الآخر.

(25) هدهدت الصبي أمه: حرّكته لينام.

(26) لا أعوج: لا أحفل.

(27) الدهماء: العامة.

(28) المندية: المخجلة.

(29) الصاغر: الذليل، والمشدوه: الدهش المتحير.

(30) الإصغاء: الميل.

(31) على غرار واحد: على طريقة واحدة ومجرى واحد.

(32) روحاً: فرحاً.

(33) تتساقط: تتناقل.

(34) المصرفة: المشتق بعضها من بعض.

(35) أصحر القلب: طاهر السريرة مكشوف الضمير.

(36) هتف بفلان: مدحه.

(37) يزوّرونها: يهيئونها ويزينونها.

(38) المشترك: من يحدث نفسه كالمهموم الموسوس. والمشدوه من دهش وتحير.

(39) أطبقوا: أجمعوا رأيهم.

(40) جعلوه دبر آذانهم: أي وراء أسماعهم فلم يحفلوا به.

(41) هدهدت آلام الصبي: حركته لينام.

(42) نحلوها: نسبوا إليها ما ليس لها.

(43) الأين: التعب.

(44) الدسكرة: القرية العظيمة.

(45) لا يتعب القارئ نفسه في البحث عن الأمكنة المسماة هنا، فقد اضطررنا أن نغير أسماءها ونخفي معالمها. «جوت».

(46) الأهراء: جمع هرى: مخازن الغلال.

(47) فنّان: كلمة اشتققتها لصاحب الفن.

(48) ملكاته: مواهبه.

(49) المتحذلق: الذي يدعي أكثر مما عنده.

(50) «جوت» من مبتدعي الطريقة الإبداعية «رومانتيك» فلعله يعرض في هذا القول برجال الطريقة الاتباعية «كلاسيك» المتشبثين بالقواعد الموضوعية. (المترجم).

(51) عرسوا: نزلوا وأقاموا.

(52) السورة: الحمية.

(53) القديح: ما يبقى في أسفل القدر من الطبيخ فيغرف بجهد.

(54) كرتزر: عملة ألمانية تساوي ملليمين تقريباً.

(55) حدبة: مشفقة.

(56) تبله: ذهب بعقله.

(57) أربي: حاجتي.

(58) غناء: نفع.

(59) الدارة للشمس كالهالة للقمر.

(60) المربد: الأسود المنقط بحمرة.

(61) هفا القلب: أسرع خفقاته.

(62) أجزته: اجتزته.

(63) وصيد الباب: عتبته.

(64) مفرده ردن وهو الكم.

(65) يطفر: يثب.

(66) سجحا: متئذا مترفقا.

(67) نستسمح رجال اللغة في وضع هذه الكلمة للوجبة الخفيفة التي تؤكل وقت العصر.

(68) عداوة الدار: بعدها.

(69) طريدتها: المولودة بعدها.

(70) تكلأ: ترعى.

(71) سترنا مضطرين في هذا الموضع أسماء الأعلام حتى لا يتألم لهذا القول أحد. على أن الواجب ألّا يعبأ مؤلف بحكم فتاة واحدة ولا برأي فتى طائش.

(72) كذلك اضطررنا هنا أن نحذف أسماء كثيرة من الكتّاب والمؤلفين في هذا البلد، فأما الذين نالوا إعجاب شارلوت وثناءها فسيعلمهم القارئ بالحدس والتخمين، وأما الآخرون

فلا يعني أحداً منهم أحد. «جوت».

(73) فضلنا أن نبقي لفظة البيانو ونعرّفه بحذف الواو على أن نستعمل فيه «المضراب» أو نضع له كلمة جديدة.

(74) السلافة: الخمر.

(75) نقض مرة صبري: قوته.

(76) تربصنا: انتظرنا.

(77) سورتهم حدتهم.

(78) سنا البرق: ضوءه.

(79) البرق الخلب: المطمع المخلف، وأصله السحاب الذي لا مطر فيه.

(80) القطر: المطر.

(81) يذدن: يدفعن.

(82) جمع عود والمراد به الشميك أو الغليون.

(83) كلوبستك شاعر ألماني يؤثره الألمان 1724 ـ 1803. ذكرته شرلوت بالإكبار والإعجاب حين ذكرها جمال المنظر الذي تشاهده بإحدى قصائده الرائعة في وصف منظر يشبهه.

(84) الجدد: الأرض الغليظة المستوية. ومنه المثل: من سلك الجدد أمن العثار.

(85) الوثاق: ما يشد به من قيد أو حبل ونحوه.

(86) العيش الرفيع: الواسع الطيب.

(87) المستراد الحرج: المجال الضيق.

(88) بينيلوب Pénelope امرأةُ أوليس Ulysse وأم تليماك. غاب عنها زوجها عشرين سنة فتقدم إليها الخاطبون وألحّوا. فدعاها الوفاء لبعلها أن تمكرهم فوعدتهم أن تختار منهم من تشاء إذا فرغت من نسيجها، ثم كانت تفتق بالليل ما نسجته بالنهار، وظلت كذلك تراوغهم وهم على بابها حتى عاد زوجها.

(*) الدغدغة: تخميش في بعض الجسم يحدث عنه انفعال يضطر للضحك «زغزغة».

(89) ذو نهية: صاحب عقل.

(90) العقيرة: صوت المغني والباكي والقارئ. يقال رفع عقيرته أي صوته.

(91) جبلتهم: طبيعتهم.

(92) الغير: الحوادث.

(93) معلم الإنسانية، السيد المسيح عليه السلام.

(94) من عمده المرض. أضناه وأوجعه وفدحه.

(95) العقداء: ذات العقد.

(96) الموقورة: الثقيلة السمع.

(97) القابل: اسم للعام بعد العام الحاضر.

(98) رئدها: قرينتها في السن.

(99) البيعة: الكنيسة.

(100) ينجلون المرعى: يحشّونها.

(101) انسلى الهم: انكشف.

(102) يبلها: يختبرها.

(103) بين أيدينا الآن عظة نفيسة في هذا الموضوع لفارتر من بين ما كتبه عن سفر يونس ـ عليه السلام ـ «غوته»

(104) انثالت: تتابعت وكثرت.

(105) تأسو تلومه: تداوي جروحه.

(106) عمدة المرض: أضناه وأوجعه وفدحه.

(107) السادرتان: المتحيرتان من شدة الحمى.

(108) المنحل: الواهن النحيل.

(109) شؤون العين: مجاري الدمع.

(110) من أساطير الأولين أن البنت إذا قبلها رجل أجنبي نبت في وجهها لحية كثيفة.

(111) التعميد أول أسرار الدين المسيحي، وهو غسل الصبي بالماء باسم الأب والابن وروح القدس، وفي ذكر هذا تهكم بالرجل كما لا يخفى.

(112) الساجي: الساكن.

(113) لهاث الموت: شدته وكربه.

(114) جماد الكف: بخيل.

(115) أعضل: استعصى.

(116) نكل الأطباء: عجزوا.

(117) زهفت إلى الموت: دنت منه.

(118) الفلورينة: نقد نمساوي يساوي فرنكين وعشرة سنتيمات.

(119) ولا يمين: لا يكذب.

(120) الرغيب العين: الطامع.

(121) التاث الأمر: صعب.

(122) الصلصال: الطين.

(123) الفرازق: جمع فرزق، وهو قرص العجين.

(124) دسرها: جمع دسار وهو المسمار.

(125) أحرق الأرم: أي تغيظ فحط أضراسه بعضها ببعض.

(126) الملموم: من أصابه اللمم، وهو طرف من الجنون.

(127) الأنف الأقنى ما ارتفع أعلاه واحدودب وسطه وضاق منخراه. والأفطس ما تضامنت قصبته وانتشرت في الوجه.

(128) انقض العبء ظهري: أثقله حتى جعله نقضاً أي مهزولاً.

(129) بلية على بلية. والضغث قبضة من الحشيش أو قضبان صغار. والأبالة: الحزمة الكبيرة من الحطب.

(130) لأكناته: جمع لكن توسعاً.

(131) ألقى القبر على رسيلاته: تهاون به.

(132) يتضاغون: يتضورون ويصيحون.

(133) السغوب: شدة الجوع.

(134) وتدعون المجنون: تدفعونه بعنف.

(135) الفريسيون: فرقة من بني إسرائيل كانوا زمن المسيح يتشددون في الدين ويتظاهرون بالورع رياء ومخادعة، فكشف سترهم وأعلن نفاقهم.

(136) فترزح: تسقط أعباء.

(137) بديعاً: مبتكراً يخالف ما عليه الناس.

(138) الداء الثبات: المعجز عن الحركة.

(139) وقيذا: مشفياً على الموت.

(140) ثابت قواه: رجعت.

(141) الأشنان: نبات دقيق ينبت لفائف على السقوف والصخور.

(142) الرتم: نبات بقلي ذو زهر أبيض أو أصفر.

(143) الأطواد: الجبال.

(144) دهاقاً: مملوءاً.

(145) وانجابت: انكشفت.

(146) فاغر: فاتح.

(147) الآتي: الجارف.

(148) ينبجس: ينفجر.

(149) أسف النظر: أسدده وأحده.

(150) الأضابير: جمع أضبارة وهي الحزمة من الصحف.

(151) الجمام: الراحة.

(152) لصب جلده: لزق باللحم من الهزال.

(153) أشاح بوجهه: أعرض.

(154) الشواجن: النبات الطويل الملتف المتشابك.

(155) اللاغب: التعب.

(156) التمطق: شد الوسط بالمنطقة «الحزام».

(157) عوض: ظرف مختص بالنفي بمعنى أبداً وهو لاستغراق المستقبل فقط.

(158) كظم على جرته: سكت على ما في جوفه فلم يتكلم به.

(159) القسطل: شجر الكستناء «أبو فروة».

(160) بدهام: يسود قليلاً قليلاً.

(161) زهقت: أسرعت.

(162) العين الكلوء: الراعية الواعية.

(163) الرجال السود: يريدون الكهنة.

الجزء الثاني ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٧١

بلغت ذلك البلد أمس فوجدت السفير معتلاً، ولا يغادر الفراش إلا بعد بضعة أيام. لو كان ذلك الرجل على شيء من سماحة الخلق ورقة الحاشية لسار الأمر على ما أحب. إن المقدور يدخر لي في بطون الغيب ما شاء من أرزاء ومحن؛ ولكن اللّه يرزقني الجَمَد ويلهمني الصبر. والمرء بشيء من قلة الاهتمام يستطيع أن يتحمل كل شيء. قلة الاهتمام! يضحكني أن تسيل هذه الكلمة من يراعي، وهي لو كانت من خلقي لكنت اليوم أسعد من تظله السماء.

واعجبا! بينما أرى كثيرين حولي سعداء بكفافهم، ويتبجحون بكفايتهم القليلة، ويفخرون بقرائحهم العليلة، أقنط أنا من قواي وأيأس من مواهبي! اللهم يا من حباني تلك القوى ومنحني هذه المواهب! لمَ لم تسلبني شطرها وتبدلني بها ثقة النفس وراحة الفكر وهدوء البال؟ صبر جميل! فسيعذب الورد ويحمد الصدر. قد أدركت صحة رأيك فيما قلت يا صديقي، فإني منذ ألقيت نفسي في غمار هؤلاء القوم، ورأيت ما يعملون وكيف يعملون، رضيت عن نفسي وسررت بحالي. لا مرية أننا ما دمنا مفطورين على أن نقارن كل شيء بأنفسنا، ونقارن أنفسنا بكل شيء، فسعادتنا أو شقوتنا تتعلق بتلك الأشياء التي نرتبط بها ونقارنها. ولذلك كانت العزلة أشد الأحوال خطراً علينا وأكثرها ضرراً بنا، فإن مخيلتنا الوثابة بغريزتها إلى درج الكمال، المهتاجة بما يغذيها الشعر من صور الخيال، تتصور طبقات الناس كالمدرج ثم تجعلنا في الدركة السفلى منه؛ فيخيل إلينا أن كل شيء ما عدانا أحسن وأجمل، وأن كل إنسان سوانا أفضل وأكمل.

ذلك أمر قام عليه برهان الطبع، فإنا كثيراً ما نشعر بنقصنا وحاجتنا؛ ونظن أن ما نقصناه أو فقدناه يملكه إنسان آخر، فنخلع عليه كل ما نلبس، ونسدي إليه كل ما نملك، ثم نتوج ذلك العمل بسعادة خيالية وراحة وهمية تصرف عنه فكرة الأعنات والجهد. وعلى ذلك نجد هذا المخلوق السعيد قد أصبح جماع الفضائل التي خلقناها بأنفسنا وأوجدناها.

ونقيض ذلك أنا إذا سرنا في عملنا غير وانين ولا لاهين وجدنا أنفسنا على الرغم من مصاعبنا وضعفنا قد شأونا الآخرين ونحن نسير الهوينى وهم يسيرون بالشراع والمجداف.

وجملة القول إن المرء لا يعرف قيمة نفسه بالحق إلا إذا جارت أندادها في مضمار الحياة فلحقتهم أو سبقتهم.

26 نوفمبر

بدأت أجد عبء الحياة بالنسبة إلى ما مضى ميسور الحمل، وأرى في كثرة العمل شاغلاً عما بي، وأبصر في تعدد الوجوه وتجدد الصور مناظر جديدة متنوعة تسلي النفس وتسري الهم.

قد عرفت الكنت د. ج. وهو رجل تزداد له إعظاماً وتجلة، كلما ازددت به عرفاناً وخبرة. واسع الإطلاع عميق الفكر غزير المادة، إلا أنه على ذلك غير بارد ولا ثقيل. يريك حديثه رقة شعوره وصلاحية نفسه لغراس الصداقة والحب. جذبه إلي أني فاوضته ذات يوم في أمر كلفت أن أفاوضه فيه، فرأى من كلماتي الأول أننا متفاهمان متفقان، وأنه يستطيع أن يكلمني بغير ما يكلم به دهماء الناس. ولا يسمح لي حيائي أن أتمدح بما يعاملني به من صدق الإخلاص وصراحة اللهجة. والحق أنك لا تجد في العالم لذة أصدق، ولا مرة أقوى من أن ترى قلباً خالصاً ينفتح أمامك، ونفساً كبيرة تنكشف لك.

24 ديسمبر

طالما آلمني هذا السفير وغمَّني، وذلك ما كنت أتوقعه. إنه رجل مأفوك مماحك يعييك أن يتابعك على ما تريد. لا يتقدم إلا خطوة خطوةى؛ ثم يتكلف في قوله، ويدفق في فعله، دأب العجوز الثرثارة. ومحال أن يرضي نفسه أو يرضيه غيره. أحب أن أسير على سجيتي في العمل. وأجري على إلهامي في الكتابة، فأكتب ما أكتب دون تعمل ولا تنقيح. ولكنه يرده إلي مشفوعاً بتقرير وتعزير كقوله: «أنه حسن، ولكن أعد نظرك فيه، فإن الباحث لا

يعدم عبارة أحسن، ولا أداة أدق» فأود حينئذ لو تخطفني الطير أو تهوي بي الريح في مكان سحيق! أنه لا يريد أن ينسى علامة وقف، ولا علامة وصل. وهو ألد العداء للتقديم والتأخير في الكلام كما يقع مني في الغالب. فإذا لم تكن الجمل جارية على سفن التقليد، مسوقة على أسلوب الديوان، استبهم عليه اللفظ واستغلق دونه المعنى. إن العمل مع أمثال هذا الرجل لحمى الروح وأذى القلب. على أن فيما يبديه إلى الكنت د. ج. من الثقة بي عوضاً عن كل هذا. ولقد صارحني منذ أيام بسخطه على هذا السفير لتلكؤه وتنطعه وقال: «إن هؤلاء الناس يكدرون صفو الحياة على أنفسهم وعلى غيرهم؛ ولكن لا بد أن نلبسهم على خشونتهم، ونسيغهم على كدورتهم، كالسائر يعترضه الجبل فلا يجد بدا من اجتيازه. لا ريب أن الطريق بغير هذا الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر، ولكنه كان ولا بد من اختراقه!

فطن هذا السياسي المتحذلق إلى أن الكنت يؤثرني عليه فورم لذلك أنفه، وأخذ يتحين الفرص ليذكره بالسوء لدي، فأتصدى للدفاع عنه فلا يزداد إلا حنقاً وموجدة. لقد استوقد غضبي بالأمس إذ رماني أنا والكنت بحجر واحد. قال لي: «إن الكنت متقلب في فنون السياسة، متصرف في ضروب الكتابة، متدرب اليد على العمل، ولكنما يعوزه الرسوخ في العلم والضلاعة فيه، وتلك حال الأدباء أجمعين»، ألقى هذه الكلمات بلهجة وهيئة تعبر عنهما هذه الجملة: «هل تشعر بهذا السهم؟» على أن سمهمه قد طاش وسيفه قد نبا. فإني أحتقر من يفكر ويعمل على نحو ما يفعل هذا الرجل.

رددت عليه قوله غضبان محتداً بأن الكنت أجدر بكل إعظام وتجلة لسوء أخلاقه وسعة مداركه، ولم تر عيني رجلاً مثله قد وسع فكره بأشتات العلوم، وملأ ذهنه بمختلف الأشياء، دون أن يفقد نشاطه للأعمال العادية.

ولكن هذا الكلام كان على ذهنه المغلق وفكره البليد أشبه بالعبرية أو الجبر. ثم انصرفت خشية أن يطيل في هذا الهراء فيمك روحي(164) ويفت كبدي. هذه جريمتكم أيها الذين أكرهتموني على حمل هذا النير بإلحاحكم علي بالاشتغال ونصحكم إلي بالعمل. وأي عمل

في هذا؟ أنا قبل أن أجدف(165) عشر سنين دأباً في هذه السفينة الملعونة التي قُيدت بها إذا لم يكن الرجل الذي يزرع البطاطس ويذهب على جواده إلى المدينة ليبيع ثمره أبلغ مني سعياً وأكثر عملاً.

ناهيكم بهذا الشقاء البراق وتلك الإقامة المشئومة بين هؤلاء الأوغاد الذين يتفانون في السبق، ويتهالكون على التقدم، ويرائي كل منهم الآخر ويسقطه ليتقدم عليه خطوة، أو ينال دونه حظوة.

إن أسفل الشهوات وأحقر الأهواء لتتجلى في هذه البيئة من غير نقاب ولا حجاب. وأذكر لك على سبيل المثال امرأة من نساء هذا البلد لا تفتأ تحدث الناس عن شرف أصلها واتساع أراضيها حتى لا يتمالك من لم يعرفها أن يقول في نفسه: «ما لهذه البلهاء تستطيل عجباً وتميس اختيالاً بكرم مولدها وشهرة ضياعها؟» ولكن أفظع من ذلك وأشنع أنها لم تكن إلا بنت كاتب من كتّاب المحكمة في إحدى الضواحي!

أنا لا أفهم كيف تبلغ البلادة والغفلة بالجنس البشري أن يهبط إلى هذا الدرك الأسفل من الضعة. تزيدني الأيام علماً يا صديقي أن من الحمق أن يقيس الإنسان غيره على نفسه. كل له في نفسه ملهاة ومشغلة. وأن أشد ما يشغلني لهو تهدئة قلبي الثائر وتسكين نفسي المضطربة. ما لي وللناس؟ لا جرم أني أدعهم يسيرون كما يشاءون ما داموا لا يقفون في سبيلي، ولا يسعون في تضليلي. على أن آلم الأِشياء لنفسي، وأشدها إثارة لحنقي، ذلك التمايز القبيح بين طبقات المجتمع، أجل إني أعلم ما يعلمه الناس من ضرورة هذا التباين وما يجديه علينا من النفع، ويسديه إلينا من الخير. ولكني لا أريد أن يكون عقبة كأداء في سبيل القليل من السعادة التي يستطيع المرء أن يتذوقها في هذه الحياة.

عرفت منذ قليل في بعض منتزهاتي الآنسة ب. وهي فتاة رقيقة الشمائل أنيسة الطلعة، قد سار أكثر أخلاقها مع الطبع في وسط هذه الخلائق المتصنعة والخلال المتكلفة. تحادثنا فأعجب كل منا الآخر. ولما صافحتني للوداع استأذنتها أن أزورها فسمحت بذلك عن فضل واسع ونفس طيبة، حتى لم أستطع تأخير الزيارة إلى الوقت الملائم إلا بعد لأي.

لم تكن الآنسة من هذه المدينة، وإنما كانت تقيم عند عمة لها شمطاء لم تقع من قلبي موقعاً حسناً. على أنني بالغت في الالتفات إليها وأقبلت بأكثر الأحاديث عليها، فحزرت من أمرها في أقل من نصف ساعة ما كاشفتني به الحفيدة بعد.

علمت من حال هذه المرأة أنها لم تجد في شيخوختها عطفاً من الناس ولا ولاء، ولم تملك على الكبر ثراء ولا ذكاء، فلم يكن لها سند غير أثيل منبتها وكرم نسبها، ولا مأوى لها غير سياج من الشرف ضربته من حولها، ولا لذة غير أن ترمي الناس بنظرات الاحتقار من شرفة بيتها. وقد قيل إنها كانت في شبابها جميلة، وإنها قضت عمرها الأول في السرف والترف فعذبت بدلالها وتجنيها كثيراً من الفتيان المساكين. ولما ذوى شبابها وتصوّح وضعت عن منكبها رداء الزهو وبذلت مقادتها لضابط هرم فجازاها على استكانتها وطاعتها بالعيش معها عهد الكهولة حتى غلبها الموت عليه فعاشت في برودة الشيخوخة منبوذة وحيدة ولولا دماثة طبع الحفيدة ما التفت إلى العجوز أحد.

8 يناير سنة 1772

عجباً لأولئك القوم الذين يتشبثون بالمواضعات، ويتعلقون بالرسميات، فيصرفون عقولهم وجهودهم طول السنين في استنباط الوسائل للانتقال من كرسي(166) متأخر إلى كرسي متقدم على المائدة! لا تحسبن اشتغالهم بتلك المحاقر لأنهم لم يجدوا ما يشتغلون به، فإن اهتمامهم بها وانصرافهم إليها أذهلهم عن إنجاز الأعمال الخطيرة المتراكمة لديهم، وعاقهم عن تأدية الأمور الكثيرة الواجبة عليهم.

كنا في الأسبوع الماضي في سباق على الجليد بالزحافات، فحدث من تنافس القوم في التصدر، وتكالبهم على التقدم شجار عنيف كدر صفو الحفلة وأفسد نظام السباق. ألا يعلم أولئك الحمقى أن قيمة المرء بما يعمله، وأن عظمة المنصب فيمن يشغله، وأن الأقدار لا تقاس بالرتب ما دمنا نرى ذوي المراتب الرفيعة لا يقومون في الأكثر إلا بالأعمال الوضيعة؟ كم ملوك يقودهم الوزراء! وكم وزراء يقودهم الكتاب! فقل لي بربك أي الثلاثة أرفع شأناً

وأسمى مقاماً؟ إن أرفع هؤلاء على ما أرى من كان أبعدهم في المشكلات نظراً. وأثقبهم في الملمات فكراً، وأقدرهم على أن يستخدم بحوله وحيلته قوى الآخرين وأهواءهم في تنفيذ أغراضه وتحقيق مقاصده.

20 يناير

الآن أكتب إليك ولا بد يا عزيزتي شرلوت في فندق حقير خارج المدينة قد لجأت غليه من تغيير الجو واشتداد الهواء، وقد قضيت زماناً في هذه المدينة الكالحة مدينة د. وأنا هائم بين قوم غرباء عني لا تجمعني وإياهم عاطفة، ولا تدنيهم من قلبي مودة، وما شعرت لحظة واحدة بالحاجة إلى الكتابة إليك. ولكني لم أكد أحل هذا الكوخ الضيق المنعزل وأرى قطع الثلج وحبات البرد تسفع نافذتي الصغيرة حتى كنت أول فكري ومبدأ خاطري. أجل يا شرلوت! لم أكد أدخل هذا المكان حتى تمثلت صورتك وذكراك في ذهني، فاستوليا على نفسي وهاجتا في قلبي شعوراً سامياً وأثراً عظيماً.

لك الحمد يا الله! تلك أول مرة ظفرت فيها بلحظة من لحظات السعادة الأولى. آه! لو كنت رأيتني يا حبيبتي وأنا سابح في لجج الذهول والغفلة، ورأيت كيف ذوى كل شيء في نفسي وجف!

لم يبق لي لحظة من تلك اللحظات التي تفيض على القلب الحياة والقوة، ولا ساعة من تلك الساعات التي تشعر النفس بالسعادة واللذة! هيهات لم يبق من ذلك شيء! يخيل إلي أني ماثل أمام مشهد من خيال الظل أرى رجالاً صغاراً وخيولاً صغاراً يمرون أمام عيني سراعاً. فأسأل نفسي: «أما ذلك وهم مجسَّد منظور؟» على أنني أمثل دوري بنفسي مع هؤلاء الأشباح؛ وبالحري هم يتخذونني لعبة تتحرك بإرادتهم. وكثيراً ما تناولت يد جاري فأجدها خشنة فأتراجع فزعاً مرتاعاً!

وعدت نفسي في الليل أن أسرها برؤية الشمس بازغة؛ فلما دنا الصباح لم أستطع أن أقطع العزم على ترك السرير. وفي النهار منَّيتها أن أمتعها بمنظر القمر مضيئاً، فلما أقبل المساء لم

أجد ما يحملني على ترك الغرفة. أنا لا أعلم يقيناً لماذا أستيقظ ولماذا أرقد؟ لقد عدم ذلك العنصر الذي كان يبعث في نفسي الحياة والحركة، وفني ذلك السحر الذي كان يعقد طرفي النجم في جوف الليل، وينزعني من أحضان الكرى في غرة الصبح.

لم أجد في هذا البلد من يستحق أن يدعى امرأة غير الآنسة ب. إنها تشبهك يا عزيزتي شرلوت لو كان في الإمكان أن يعلق بك شبه أو يوجد لك مثال. الآن تقولين متعجبة: «ها هوذا أيضاً قد أخذ يسلك سبيل المجاملة والملاطفة!» إنك إذا قلت هذا لا تبعدين كثيراً عن الحق. فقد أصبحت منذ زمن حلو المعاشرة بارع الظرف لأني لم أستطع أن أكون غير ذلك. فأنا في الحديث يقظ الفؤاد سريع الفطنة، ويقول السيدات أني أقدر الناس على تدبيج المدح وتنسيق الثناء (أضيفي إلى ذلك أني أقدرهم على الكذب؛ فإن المرء كما تعلمين لا يجيد المدح إلا به).

كنت أريد أن أحدثك عن الآنسة ب. وعن نفسها الجميلة الجليلة التي تتمثل بأسرها في عينيها الزرقاوين. إن مقامها السامي عبء ثقيل عليها، لأنها لم تبلغ به رضا القلب ولا روح الضمير. إنها ترغب في الخروج عن هذه الضوضاء إلى الخلاء وسكونه. وكم ساعة قضيناها بين الحقول ننشد السعادة الخالصة والسرور المحض! وقد كان ذكرك يا شرلوت ريحانة المجلس وروح الحديث. آه! كم مرة أجبرتها على إكبارك وإجلالك! أستغفر اللّه ما أجبرتها ولا أكرهتها؛ إنما تجلك من ذات نفسها عن طوع وإيثار: إنها تحبك، ويسرها أن تسمع الأحاديث عنك: آه ما أشوق القلب إلى جلسة في تلك الغرفة العزيزة الصغيرة وأطفالنا الأعزاء يطفرون حولي من المرح! لقد كنت إ ذا ما برمت أنت بضوضائهم أجمعهم ثم أحملهم على السكون والسكوت بحكايات مؤثرة مخيفة!

الشمس تغرب في جلال وبهجة وراء التلاع(167) البراقة ببياض الثلج، والعاصفة قد هدأت. وأنا؛ لا بد أن أعود إلى قفصي. استودعك الله! ألبير بالقرب منك؟ وكيف؟ غفر اللّه لي هذا السؤال.

8 فبراير

مضت ثمانية أيام والرياح عاصفة والسحب واكفة. وتلك حال تسرني وترضيني. لأني منذ حللت هذا البلد لم يطلع علي نهار ضاح جميل، إلا كدره أو سممه علي ثقيل. أما الان فالسماء إذا أمطرت أو أثلجت، والأرض إذا جلدت أو ذاب جليدها، قلت في نفسي: «لا بأس! ليس الأمر في البيت بارداً منه في خارجه».

إذا أسفر طلوع الشمس عن يوم صحو لا أتمالك أن أصيح: هاك نعمة من اللّه سيسلبها كل من كل، وينغصها بعض على بعض! ليس في العالم شيء لم يتحاسدوا عليه ولم يتنازعوه: الصحة والسمعة والمسرة والراحة! وأغلب ما يصدر ذلك منهم عن سخافة عقل وقصر نظر وضيق فكر. ولئن سألتهم عن ذلك ليقولن إنما فعلناه عن نية حسنة وطوية خالصة. إنه ليقوم بنفسي أحياناً أن أجثو أمامهم تضرعاً إليهم ألا يمزقوا أحشاءهم، وألا يحرقوا دماءهم، بذلك الإسراف في الغضب.

17 فبراير

أخشى ألا أستطيع البقاء مع السفير طويلاً. فإن هذا الرجل ثقيل لا يحتمل، وطريقته في العمل وفي إدارته سخيفة مضحكة، حتى ليعوزني الصبر فأسفهه وأفنده، أو أقضي الأمر على ما أرسمه وأقصده، وذلك بالطبع لا يرضيه. شكاني أخيراً إلى البلاط فوبخني الوزير توبيخاً ليناً رقيقاً إلا أنه على كل حال توبيخ. فهممت أن أستقيل لولا ألقي إلي كتاب خاص من الوزير لم أتمالك حين قرأته أن استبكنت إجلالاً لما فيه من عاطفة سامية وحكمة بالغة: لامني فيه على فرط انفعالي وشدة تأثري، ولم ينكر علي أفكاري الحماسية المتطرفة، ولا هيمنتي على غيري من العاملين، ولا طمعي أن أنال مكانة ظاهرة في العمل، بل عزا كل ذلك إلى نشاط الشباب المحمود؛ ولم يرد أن يكسر من شرته، بل أراد أن يلطفه ويعطفه إلى الغاية التي يحسن فيها استعماله، ويحمد عندها مآله.

بعث في هذا الكتاب قوة الصبر على ثمانية أيام أخر، وجعلني بعد ذلك على وفاق وسلام مع نفسي.. إن رخاء البال ورضا المرء عن نفسه لهما الفوز العظيم والسعادة الحق. آه يا صديقي لو لم تكن هذه الحلية هشَّة المكسر على قدر جمالها ونفاستها!

20 فبراير

بالرفاه والبنين يا حبيبيّ العزيزين! بارك اللّه عليكما ومتعكما بما حرمني إياه من الأيام السعيدة والعيش الرغيد!

لك الشكر يا ألبير على خديعتك إياي، فقد كنت أنتظر إعلان يوم زواجكما، وكان في عزمي أن أرفع صورة شرلوت من الحائط في ذلك اليوم باحتفال وأواريها في بعض الأوراق. وها أنتما ذان قد اقترنتما ولا تزال الصورة في مكانها. وستبقى فيه أبد الدهر! ولم لا تبقى وأنا أعلم دون أن أسيء إليك أني عندك أيضاً في قلب شرلوت؟ وأعلم ذلك أن لي فيه المحل الثاني، وأريد بل يجب أن أحتفظ به. واويلتاه أن حاولت شرلوت أن تنسى! هذه الفكرة يا ألبير هي العذاب المقيم في نار الجحيم. ألبير وداعاً! وداعاً يا ملاك السماء! وداعاً يا شرلوت!

15 مارس

لحقني في هذا البلد إهانة لا يستقر لي معها قرار ولا تطيب لي بعدها إقامة: إهانة بت لها قائماً قاعداً أزفر من الغيظ وأنفث من الغضب. وهيهات أن أجد عنها عزاء، أو أعرف لها دواء! وأنتم سبب ذلك كله أيها الذين دفعوني وحرضوني على قبول عمل ليس لي ولست له. شغلته تحقيقاً لأملكم فنلت منه ما أستحق، وأفدت به ما أستوجب: فطيبوا نفساً واطمئنوا!

لا تقل كعادتك أن أفكاري المتطرفة هي التي أفسدت كل شيء. فدونك الحادثة يا سيدي العزيز أسوقها إليك بسيطة واضحة كما يسوقها مسجل الحوادث في جريدته.

كل يعلم أن الكونت د. ج. يحبني ويجلني، وقد قلت لك ذلك مائة مرة. دعاني إلى العشاء معه أمس، وكان ذلك يوم اجتماع النبلاء للسمر عنده. لم أفكر في هذا علم اللّه ولم يدر في خلدي أن الرسميات تحرم علينا معشر المرؤوسين أن نجالس أولئك السادة! لا بأس! فبعد أن فرغنا من الطعام انتقلنا إلى القاعة الكبرى وأخذنا نتمشى فيها طولاً وعرضاً ونحن نتجاذب أهداب الحديث. ودخل علينا في غضون المحادثة الكولونيل ب. فتشقق الكلام واتسع نطاق السمر. أزف وقت الاجتماع وأوشك أن يفد السامرون، وأنا لا أزال ـ شهد اللّه ـ خالي الذهن من كل شيء. فتح الباب ودخلت ذات الرفعة والسلطان السيدة د. س. ومعها زوجها النبيل وابنتها القوية الغبية ذات الصدر المسطوح والخصر الأهيف، فنظروا إلي حين مروا على مزدرين، وزموا(168) بأنوفهم مستكبرين، كدأب السادة العظماء!

أنا أكره هذا الجنس بإخلاص، ولا أحب أن يجمعني بأفراده مجلس. فانتظرت ريثما يخلص الكنت من ثرثرتهم الغثة الباردة ثم أستأذنه في الانصراف. بيد أني آثرت البقاء حينما رأيت الآنسة دي. ب. داخلة، لأني أشعر لدى مرآها بشيء من سرور النفس وانشراح الصدر. جلست وراء كرسيها ثم طارحتها الحديث فكلمتني على غير عادتها بلهجة متكلفة غير صريحة، فيها شيء من التأفف والضجر، فنال ذلك مني وقلت في نفسي: «أهي أيضاً على أخلاق هؤلاء؟» ثم هممت بالخروج لما نالني من الهون. غير أني بقيت طمعاً في تسويغ فعلها، ورغبة في استماع جميل قولها، وأملا في أن أكون أنا ألواهم المخدوع.

أخذ عقد الجلوس يتسع بالوافدين شيئاً فشيئاً، ورأيت فيمن أقبل البارون ف. وعليه كل ما في صوانه(169) من ثياب يرجع عهدها إلى تتويج العاهل فرنسوا الأول. وكذلك مستشار البلاط.. الذي وسموه بألقاب الشرف، جاء ومعه امرأته الصماء. ولا تنس المسكين ج.؛ فقد كان هندامه المشيّأ(170) مضحكة للناس، إذ سد ما أعوزه من الثياب على الطراز الغوطي بخرق لا قيمة لها من الطراز الحديث. ولا أطيل عليك فقد جاء القوم كراديس وأخذوا مواضعهم من المجلس. وأقبلت على بعض معارفي أحادثهم فوجدت منهم فتوراً عن الحديث وإيجازاً في الجواب. ففكرت ثم فكرت، ولكني لم ألق بالي إلا إلى الآنسة ب. فما لاحظت أن النساء الجالسات في آخر القاعة كن يتساررن، وأن مسارتهن دارت حتى بلغت

آذان الرجال، وأن السيد س. كانت تفاوض الكنت. كل ذلك لم أفطن له وإنما حدثتني به الآنسة ب. بعد.

وآخر الأمر أن الكنت تقدم إلي وانتبذ بي ناحية الشباك وقال: إنك لا تجهل ما في عاداتنا من الغرابة والشذوذ. وقد لاحظت أن القوم لا يروقهم وجودك بينهم؛ ولكني لا أريد مع ذلك.. فقاطعته قائلاً: أستغفرك يا صاحب السعادة ألف مرة! فقد كان حقاً علي أن أفكر في ذلك من قبل. ولكنك ستنبسط على نزقي جناح عفوك. ولا أكذب اللّه فقد نويت الخروج منذ قليل فعاقني الشيطان اللعين عن ذلك. قلت هذه الجملة باسماً ثم انحنيت إليه مودعاً، فأحنى الرجل وهو من تأثره في حال تنم عن مكنون صدره. وانسللت من هذه الجماعة الجليلة وركبت مركبة أقلتني إلى م. فجلست فوق الربوة أشاهد مغرب الشمس وأقرأ لهوميروس ذلك النشيد الجميل الذي يذكر فيه كيف نزل أردسيوس ضيفاً كريماً على راع فاضل من رعاة الخنازير، فسرى عني. ثم أبت في المساء إلى العشاء فدخلت المطعم ولم يبق في قاعته غير نفر يلعبون «بالزهر» على أركان المائدة بعد أن رفعوا طرف الخوان. ولم يكد يستقر بي المقام حتى أقبل الفاضل «أدلين» فعلق قبعته على المشجب وهو ينظر إلي. ثم قال بصوت خافت: هل اعتراك امتعاض وابتئاس؟ فقلت له: أنا؟ فقال: نعم حين حملك الكنت على أن تفارق الجماعة. فصحت به قائلاً: قاتلها اللّه من جماعة! لقد وجدتني أسعد نفساً وأحمد حالاً في الهواء الطلق. فقال: يسرني أن ترى الأشياء من جهتها الحسنة، ولكن يسوءني أن الخبر قد سار على الأفواه فتناقلته الأندية، واضطربت به الألسنة!

حينئذ بدأت أمتعض، وأخذت كلما دخل المطعم إنسان ونظر إلي ظننت أن هذه النظرة لتلك المسألة، فيجيش صدري من الغيظ ويغلي دمي من الحنق. وأنكى من ذلك إني اليوم أينما أوجه أر من يرثي لي ويشفق علي. وأعلم أن حسادي ومنافسي يبدون الشماتة ويظهرون الغلب ويقولون: «انظروا كيف كانت عاقبة هؤلاء الأدعياء الذين يتبجحون بالنزر اليسير الذي أوتوه من الذكاء، ويحسبون أن لهم الحق في ان يضعوا أنفسهم فوق كل اعتبار!» إلى غير ذلك من الهراء القبيح. مَن من الناس يسمع هذا القول ولا يتمنى أن تخترق أحشاءه مدية قاطعة؟ قولوا ما شئتم في تمجيد الاعتدال وضبط النفس، ولكن

أروني من يستطيع الصبر على سفلة يسمَّعون[171] به ويمرجون[172] ألسنتهم في عرضه، وقد تمكنوا منه، ووجدوا السبيل إلى دحض حجته؟ آه! لو كان كلامهم واهي الأساس فاسد المعنى لهان على المرء أن يسخر منه، ويجعل في أذنه وقراً عنه!

16 مارس

كل ما حواليّ الب عليّ، يوقد صدري بالغضب ويفت كبدي بالغيظ: اليوم قابلت الآنسة دي ب. في طريقي إلى النزهة فلم أتمالك أن دنوت منها، وملت عن الناس بها، ثم شرحت لها ما أحدثه سلوكها معي يوم أمس من الأذى والألم. فقالت لي وهي منفعلة ثائرة: كيف استطعت يا فرتر أن تفسر اضطرابي هذا التفسير وأنت تعلم قلبي! اللّه يعلم كم تألمت من أجلك منذ دخلت البهو! وقد كنت أتوقع حدوث ما حدث. وكثيراً ما هممت أن أنبهك له. كنت أعلم أن السيدتين دي س. ودي ت. وبعليهما كانوا يؤثرون الخروج على أن يضمهم وإياك منتدى واحد. واعلم أن الكنت لا يجرؤ على خصامهم، ولا يقدر على دفع كلامهم. ولا تسل الآن عن الفضيحة المستطيرة، والقالة المستفيضة! فذكرني كلامها ما قاله أدلين ليلة البارحة فكأنما تدفق في عروقي ماء حميم[173]. ولكني أمسكت على ما في نفسي من القلق وقلت لها: ماذا تريدين أن تقولي أيتها الآنسة؟ فقالت تلك الفتاة الفاضلة والدمع يجول في عينيها: لشد ما شق علي هذا الأمر! فطار عقلي وجن جنوني وأوشكت أن أترمى على قدميها ثم ناديتها: «بربك لتفصحين عما تضمرين» فغيَّضت من عبراتها المسيلة ولم تحاول إخفاءها ثم قالت: «أنت تعرف عمتي! لقد كانت فيمن حضر هذا الجمع ورأى هذا المشهد. رأته ولكن بأي عين! وتكلمت فيه ولكن بأي لسان! فرترا لقد انحت علي باللوم، في مساء الأمس وصباح اليوم، على صلتي بك. وقضى اللّه أن تحتقر وتهان سمع أذني ولا أستطيع أن الدفاع عنك إلا قليلاً».

كانت كل كلمة من كلماتها أشد وقعاً على قلبي من طعنة خنجر. وما كانت تدري أن الواجب عليها أن تستر هذه الأشياء رحمة بي وإشفاقاً علي. مضت في كلامها تذكر كيف أرجف الناس بهذا الأمر وخاضوا فيه. وكيف قامت طائفة تنتصر بهذه الحادثة وتبتهج، وتعدها

عقاباً على ادعائي وصلفي وقلة اكتراثي بالناس، وذلك ما لاموني عليه منذ طويل. شديد علي أن أسمع كل ذلك من فمها يا وليم بتلك اللهجة الصادقة المخلصة! لقد اضمحلت قواي ولا أزال موغر الصدر مسعور الفؤاد. وكنت أتمنى لو أن إنساناً جرؤ على مواجهتي بهذا الكلام حتى أخترق أحشاءه بالسيف، فإن منظر الدماء كان يشفي صدري ويطفي غليلي.

آه! كم مرة تناولت الخنجر لاريح قلبي من العبء الذي يبهظه! لقد قيل إن في الخيول جنساً كريماً إذا سار ملء فروجه(174) وأحماه الطراد قصد بأسنانه أحد أوردته حتى لا يختنق. ولطالما أحسست ذلك من نفسي فأود أن أقطع لي وريداً لأجد الحرية الأبدية والراحة الدائمة.

24 مارس

رفعت إلى القصر استقالتي من العمل وأرجو أن يقبلوها. وأسألك الصفح عما فعلت من غير إذنك، فإن رحيلي عن هذه الديار أصبح محتوماً. على أنني أعلم ما كنت تقوله لتقنعني بالبقاء لو استشرتك. اجتهد أن تخفف وقع هذا الخبر على أمي وأن تسيغها غصته برفق وهوادة. أنا لا أملك لنفسي شيئاً، فلم لا تعذرني هي إذا لم أملكه لها أيضاً؟ لا جرم أن ذلك سيؤلمها جد الألم. نعم يؤلمها أن ترى ولدها وهو في مبدأ الطريق إلى دار الاستشارة أو دار السفارة. قد وقف بغتة ثم رجع أدراجه فأدخل جواده في الأصطبل. سم ذلك بما تشاء من الفروض واذكر الظروف التي كانت تسمح لي بالبقاء أو تحتمه علي، فقد قضي الأمر وافد الوقت وحق السفر. وإذا عناك أن تعرف إلى أين اذهب فاعلم أن الأمير «دي» هنا ويسره أن أكون معه. وقد عرض علي منذ عرف استقالتي أن أصحبه إلى ضيعته فأقضي بها فصل الربيع. وسأكون هناك حراً في نفسي مالكاً لأمري كما وعدني. وإذا كنت أنا وهو على اتفاق في بعض الأمور فسأغامر في الحخظ عنده وأعزم السفر معه.

19 أبريل

لك الشكر على رسالتيك ولي العذر في الإبطاء عن جوابيهما، فقد انتظرت بالرد ريثما أنال من السفارة إقالتي، إذ كنت أخشى أن أمي تتوسل إلى الوزير فتكسر من ذرعي(175) وتقف دون مرامي. وقد قضي الأمر وجاءت الإقالة. ولا أذكر لك ما تبعها من شدة أسفهم علي، وما كتبه الوزير في هذا الصدد إلين مخافة أن تعظم شكواك ويضيق من عذري عندك ما اتسع. إن ولي العهد أرسل إلي خمساً وعشرين دوقية تقدمة الوداع مع كلمة مؤثرة حركت قلبي وأسالت دموعي. إذن لا حاجة لي بالمال الذي طلبته من أمي في كتابي الأخير.

5 مايو

سأرحل غداً من هذا البلد. وسأعرج على مسقط رأسي فأوزر مغانيها وأقضي عهودها، فإنها على ستة أميال من الطريق فحسب. سأزورها وأستذكر ذلك العيش الغرير وتلك الأيام السعيدة التي قضيناها في ظلال الأمن والشمل جامع والحبل متصل! تلك الأيام التي مرت كحمل الوسنان أو جلسة المختلس!

سأدخل هذه الديار العزيزة المأنوسة من الباب الذي خرجت منه مع أمي يوم غادرناها بعد موت أبي لنحتبس في مدينتكم الثقيلة الوبيلة. وداعاً يا وليم! سأوافيك بأخبار رحلتي من حين إلى حين.

9 مايو

أديت فريضة الحج إلى مسقط رأسي بقلب الحاج الورع والعابد المتحنث. ولكم البعث في قلبي من العواطف ما لم أكن أتوقعه!

لما بلغت من سرحة الزيزفون القائمة فوق طريق س. على ربع فرسخ من المدينة، نزلت من المركبة وأمرت الحوذي أن يسير وحده، فإني أريد أن أسير وراء قلبي راجلاً أتذوق جمال

تلك الذكر وأنشق أريج هذي العهود. وقفت تحت هذه الدوحة التي كانت في طفولتي غاية لنزهتي وحدّاً لمسيري.

يا لله! لشد ما تغير كل شيء! لقد كنت في تلك الأيام وأنا في نعيم الجهالة أتمنى لو انغمس في هذا العالم المجهول رجاة أن أنال فيه ما لم أنله من رغبات النفس ولذاذات العيش وأماني القلب! وهأنذا اليوم عائد من ذلك العالم الفسيح وما بين جنبيّ غير إخفاق المسعى وخيبة الأمل!

بدا أمامي ذلك الجبل الذي كان منتجع خاطري ومهوى فؤادي، ذلك الجبل الذي كنت أقضي به الساعات قاعداً أشاهده وقلبي هائج وفكري وثّاب يحملني إلى ما وراء الهضاب، ويضللني في ظلام الغاب، ويتيه بي في تلك الأودية التي كانت تجلى لعيني فتانة ضاحكة تحت نقاب من ضباب البعد. فإذا ما حان وقت الرجوع تقطعت نفسي حسرات على ترك هذا المكان العزيز علي.

اقتربت من المدينة فحييت المنازل والحدائق التي أعهدها. أما ما استحدث من المساكن أو تغير منها فلم يقم من قلبي موقع الرضا.

ولم أكد أجاوز باب المدينة حتى وجدت ما فقد من نفسي، وعرفت ما أنكرت من سائري. ولا أريد أن أشرح لك بالتفصيل كل ما أحس وأرى، فإن ذلك يكسب الحكاية من التشابه والتشاكل بقدر ما يكسبني من الانفعال والتأثر. عقدت النية على أن أنزل في دار على ميدان السوق بجانب دارنا القديمة. فلما أجزت الساحة ذاهباً إليها لاحظت أن المدرسة التي كانت تكدسنا فيها تلك العجوز البرة ونحن صغار كما تكدس الشاة في حظائرها قد تحولت إلى حانوت بدّال. وتذكرت ما كنت أعانيه قديماً في هذا القفص من اضطراب البال، وانسكاب الدمع، وضيق الصدر، وتبريح الهم.

ولم أخط خطوة إلا وجدت أثراً باقياً أو تذكاراً سامياً يملك القلب ويصبي المشاعر، وما الحاج إلى الأرض المقدسة بواجد ما وجدت من جليل الاثر وجميل الذكر في تلك البقاع

الطاهرة المباركة. خذ مثالاً واحداً من ألف: انحدرت في النهر حتى بلغت مزرعة كنت أغشاها فيما مضى كثيراً مع رفقتي ولداتي فنتبارى في قذف الحجارة على سطح النهر لنرى أيها أجمل وثوباً على صفحة مائه. فمر بخاطري ذكرى الساعات التي قضيتها هناك واقفاً على شاطئ النهر أحدج ماءه بنظري. واساير تياره بفكري: أشيعه إلى ما يمر به ويرويه من تلك الأقطار التي تتجلى في الذهن على أبدع ما يتصوره الخيال من الألوان والصور. ولكن سرعان ما يعوق الفكر ضيق التصور وحدود المخيلة فيقف. فأحثه على إمعان السير وإيغال التقدم فيسير حتى أضل بأسري في بعد شاسع لا ينظر ولا يدرك.

كذلك يا صديقي كانت الحدود الضيقة التي عاش بينها آباؤنا الأولون سعداء رافهين تظهر على شعورهم وشعرهم مسحة السذاجة وآثار الطفولة. لله در «أوليس» حين يتحدث عن البحر لا غور له ولا حد، وعن الأرض لم يطمثها من قبل أنس ولا جن! لله ما أصدق كلامه وأعمقه وأليقه بالإنسان! ماذا يفيدني أن أقول اليوم مع كل تلميذ أن الأرض كرة؟ وهل يحتاج المرء إلا إلى قطعة يسكن إليها في حياته، وإلى حفرة يرتاح فيها بعد مماته؟

أنا الآن في قصر الصيد أعيش مع الأمير على خير حال وأحسنها. إن هذا الرجل مثال الإخلاص والسذاجة! إلا أنه محاط بشرذمة غريبة لا أفهم لها مذهباً ولا خلقاً. لا تظهر عليهم علائم الاحتيال والخب، ولكنك لا تقرأ في وجوههم آية الصلاح والفضل. وقد أتوسم فيهم معنى الإخلاص أحياناً ولكني لا اثق بهم ولا أطمئن إليهم. على أنا لشيء الذي يسوءني هو أن الأمير لا يذكر غالباً إلا ما يسمعه أو يقرأه، ولا تراه يتزحزح قيد أصبع عما اكتسبه من السماع أو القراءة، ولا ينظر إلى أبعد مما أراه غيره. وأشد من ذلك علي أنه يكبر عقلي أكثر مما يكبر قلبي؛ وقلبي هو مصدر كبريائي وعجابي ومنبع كل شيء فيّ: هو منبع كل قوة وكل غبطة وكل ألم...

إلا أن العلم الذي أعرفه يستطيع كل أن يجمعه ويحصله، ولكن القلب الذي أحمله لا يتسنى لغيري أن يحمله.

25 مايو

كان في رأسي خطة طويتها عنك ريثما تتحقق وتنفذ. أما الآن وقد حيل دونها فليس ثمت ما يمنعني من ذكرها. كنت مزمعاً الدخول في الجندية، وكان هذا الغرض في نفسي من زمن بعيد، فلما عرفت الأمير كان أول ما دفعني إلى اتباعه تحقيق هذا العزم لأنه قائد في جيش روسيا. ولكني لم أكد أكشف له عن هذا الرأي حتى زهدني فيه وصدني عنه. وليس الأمر صادراً عن هوى مستحكم أو حاجة داعية حتى أحمل نفسي على مراجعته أو مخالفته.

11 يوليو

قل ما بدا لك فهيهات أن أبقى هنا أكثر مما بقيت. وهل لي في هذا المكان عمل؟ لقد تولاني السأم وثقل علي الزمن وأرى الأمير يعاملني معاملة النظير، ويكرمني إكرام العشير، إلا أنني مع ذلك لم أكن في الموضع الذي أستنسبه، ولم أبلغ المورد الذي أستعذبه. ولست في الأمر معه على سواء؛ فليس من شكلي ولا من هواي. أجل إنه رجل ذكي، ولكن ذكاءه عادي، فلا يمتعني حديثه أكثر مما يمتعني كتاب محكم الوضع. سأقيم هنا ثمانية أيام أخر، ثم أستأنف حياة الظعن والتجول. وخير ما صنعته في هذا المقام عنايتي بالتصوير وحسن أثري فيه. فإن للأمير هوى في الفن وميلاً إليه. ولكنه يقيد نفسه بالقواعد العلمية والاصطلاحات الفنية، ولولا ذلك لكان فناناً قديراً: يحدث في الغالب أني أكون متقد المخيلة مضطرم الحواس أنقله من حقول الطبيعة إلى رياض الفن، وأريه روائع الجمال الطبيعي وبدائع الفن الطليق، إذا به يرمي خلال الطريق كلمة اصطلاحية (مدموغة) حاسباً انه يفري(176) الفري ويأتي بالعجب، فيجرضني(177) بريقي، ويسد علي طريقي!

16 يوليو

أي وربي أنه لحق! لست علىهذه الأرض إلا جوّابة رحّالة! وليت شعري هل أنت إلا كذلك؟!

18 يوليو

أتدري إلى أين عزمت المسير؟ سأقول لك ذلك همساً في أذنك، مددت أجل الإقامة هنا إلى خمسة عشر يوماً، ثم أقنعت نفسي أن أزور مناجم... وحقيقة الأمر أني أريد الاقتراب من شرلوت ليس غير. إني أسخر من قلبي ثم أتابعه على ما يريد!

29 يوليو

كلا، هذا حسن! كل شيء حسن! أنا أكون زوجاً لها! سبحانك اللهم لو كنت أعددت لي مثل هذه السعادة لكانت حياتي كلها صلاة دائمة لك، وثناء متصلا عليك. لا أريد يا مولاي أن أعارض قدرتك، ولا أن أناقش حكمتك، فاغفر لي هذه الدموع السائلة، وتجاوز عن تلك الأماني الباطلة. هي! تكون زوجة لي! إذن لضممت بين ذراعي أجمل وأكمل مخلوقة تحت الشمس!

وليم! أن جسمي لتستقله الرعدة إذا ما أدار ألبير ذراعه حول قدها الرشيق. وإن كلمة تتردد على شفتي فهل ينبغي أن أقولها؟ ولمَ لا يا وليم؟ إنها لو كانت معي لكانت أسعد نفساً وأرغد عيشاً منها وهي معه. ليس ألبير بالرجل الذي يقضي حاجة هذه النفس ويحقق مراد هذا القلب. لقد تعوزه الحساسية و... ظن ما تشاء. إن قلبه لا يخفق مع قلبينا إذا ما قرأنا فصلاً من كتاب ممتع، فتجد قلبي وقلب شرلوت يتقابلان ويمتزجان وقلبه عما نحن فيه بمعزل. ولطالما دار الحديث بيننا عن إنسان فنذكر ما نحس له من عاطفة، ونشرح ما نرى في عمله م رأي، فأتفق أنا وشرلوت إلا ألبير فيقف منا على النقيض. عزيزي وليم! لا جدال في انه يحبها من صميم فؤاده، وهل جزاء هذا الحب إلا السعادة؟

إن أحد الثقلاء دخل علي الآن فقطع سلسلة أفكاري ووقف تيار دموعي، وألهاني عن كل ما بي، أستودعك الله يا صديقي!

4 أغسطس

لست فيما أصابني الدهر من اليأس والإخفاق بأول الناس ولا واحدهم؛ فكل إنسان يخطئه سهم الحظ ويكذبه رائد الأمل.

ذهبت أزور تلك المرأة التي لقيتها يوم الزيزفون فرآني بكر أولادها فجاءني عجلان يسعى إلي وهو يصيح صياح الفرح. فتنبهت أمه وتطلعت إلي فإذا هي على غير ما عهدت، منسرقة القوى منهوكة الجسم. فبدرتني بالخطاب قائلة: «أواه يا سيدي الكريم! لقد مات يحيى الصغير» وكان هذا الطفل أصغر بنيها، فلبثت صامتاً واجماً وانطلقت هي في شكواها تقول: «وزوجي رجع من سويسرا صفر اليدين. ولولا عطف بعض النفوس الكريمة لما استطاع العودة إلا بإراقة ماء وجهه، فإن الحمى لم تفلته أثناء الطريق» فلم أستطع أن أقول لها شيئاً، وقدمت إلى الغلام هدية صغيرة. ثم طلبت إلي أن أتقبل بعضاً من التفاح فتقبلته، وغادرت المكان مفعم القلب بذكرى محزنة أليمة.

21 أغسطس

كل ما عهدته في نفسي تغير في أسرع من تقليب الكف وارتداد الطرف! ولم يبق من عهد السرور غير بصيص خافت يلمع في جوانب نفسي من حين إلى حين. وما أسرع ما يحنو فيترك القلب ظلاماً والهم لزاماً! ما همت مرة في أودية الأحلام إلا احتوشني هذا الخاطر من كل جانب فلا أستطيع له دفعاً: «ماذا عسى أن يكون لو قضى ألبير نحبه؟ إذن تكون أنت... أجل وتصير هي... ثم اتبع ذلك الوهم حتى يقف بي على شفا الهاوية، فأرجع القهقرى مضطرب الحواس مرتعد المفاصل. وما خرجت من باب المدينة وسلكت الطريق الذي سلكته يوم ذهبت أول مرة إلى شرلوت أقودها في المركبة إلى المرقص إلا قلت لنفسي: شتان ما بين الأمس واليوم! وسرعان ما ذهب كل شيء واضمحل! لم يبق من ذلك العهد السعيد رسم ولا أثر. ولم أعد أجد وا أسفاه في قلبي تلك العواطف التي كانت تهزه يومئذ وتحركه! أنا كالأمير الذي قام من قبره فرأى القصر الفخم الذي شاده لواحده وقرة عينه، وزينه بالتحف الثمينة والرياش الفاخرة، قد تقوض بنيانه وأصبح أطلالاً بالية ورسوماً عافية.

2 سبتمبر

لا أفهم أحياناً كيف يقدر إنسان آخر أن يحبها أو يجرؤ على أن يحبها، وهي التي سكنت قلبي، واستأثرت بحبي، فلا أعرف ولا أحس ولا أرى غيرها في هذا العالم!

4 سبتمبر

ما أشبه حالي بحال الطبيعة! هي تجنح الآن إلى الخريف، وأنا كذلك أرى آثاره حولي وفيّ. فتلك أوراق الشجر تتناثر وتهوي، وهذه أوراق آمالي تتساقط وتذوي!

أما تذكر أني حدثتك يوماً عن فتى قروي عرفته في أول عهدي بالمقام هنا؟ لقد سألت عنه هذه المرة في ولهم فقيل لي أنه طرد من عمله ولا يعلم أحد ماذا كانت عاقبة أمره. وقد اتفق أني قابلته أ مس في طريق إحدى القرى فسألته عن حاله فقص علي ما جرى له، فحرك أوتار قلبي، وأثار شجون نفسي، وستجد ذلك في نفسك إذا ما أعدته عليك. ولكن ما الفائدة من ذكر هذا الحادث لك؟ ولم لا أكتم في نفسي ما يهمها ويغمها؟ لماذا أؤلمك معي وأفتح لك في كل ساعة طريقاً إلى رثائك لي وتأنيبك إياي؟ ولكن مال الحيلة؟ ربما كان ذلك أيضاً من شقاء جدي ولكنه حظي.

أخذ هذا الرجل، بادئ ذي بدء، يجيب عن أسئلتي بهدوء حزين يخالطه شيء من الهيبة على ما أظن، ولكنه ما لبث أن عرفني فعرف نفسه وخرج عن صمته وانقباضه. فاعترف لي بخطيئته، وأخذ يسهب في شرح مصيبته. وأشهد اللّه أني عاجز عن نقل كلامه إليك بشدة تأثيره وقوة تصويره. حدثني عن سيدته ـ وهو مسرور سعيد بذكرها وذكراها ـ أن غرامه بها كان ينمو على الأيام ويقوى على الزمن حتى بلغ حد الذهول، فلم يعد يعلم بعد علم شيئاً. عافت نفسه الطعام وجفت عينه الكرى، وكرب صدره الخناق، وعمل ما لا يجوز أن يعمله، وأهمل ما لا ينبغي أن يهمله. وأصبح كأن روحاً شريرة تصرفه وتسيره. ففي ذات يوم علم أنها في غرفة من غرف الطبقة العليا من البيت، فصعد إليها مدفوعاً بقوة لا تدفع، وأخذ يتلو بين يديها صلواته وتضرعاته فما أثرت فيها إلا كما تؤثر هبة الريح في الصخر

الأصم. فأراد أن يخضعها إليه كرهاً، ولا يدري كيف كان ذلك، وإنما يشهد اللّه على أنه لم يرد بها سوءاً، بل أراد أن تكون له زوجة يسعد بقربها وينعم بحبها.

وقف بعد أن تكلم طويلاً وقفة من احتبس في نفسه شيء لم يجرؤ على قوله. ثم كاشفني وهو خجلان بما لخصت له فيه من الدالة الخفيفة، والمباسطة القليلة، والمؤانسة اليسيرة، وقد قطع الحديث مرتين أو ثلاثاً ليستدرك على نفسه بأنه لم يقل ذلك غضاً منها ولا زراية عليها، وأنه ما زال يحبها ويجلها، وأنه لم يفه بذلك الحديث إلا ليقنعني بأنه غير فاجر ولا أحمق. وهنا أعود يا صديقي إلى أغنيتي القديمة وأرجع إلى قولي الأول: إني أعجز ما أكون عن تصوير هذا الرجل كما رأيته وكما أراه الآن، وعن شرح أمره لك شرحاً تعلم منه مقدار عطفي عليه في محنته، ومساهمتي إياه في نكبته. ولكن مالي أبعد الأمر عنك وحالي لك معلومة وحظي في ذهنك واضح؟ وأنك لتعلم رثائي للبائسين وحدبي على المنكوبين ولا سيما أمثال هذا الرجل.

أعدت النظر في هذه الصفة فوجدتني قد نسيت أن أذكر لك خاتمة الحكاية وإن كان من السهل عليك أن تتخيلها، فإن المرأة هبت للدفاع عن نفسها، وأهرع أخوها إلى نجدتها، وكان يبغض الفتى من قبل ويتمنى ألا يبقى في البيت حتى لا ترغب أخته في زواج جديد يحرم أولاده الميراث الذي بنوا عليه مستقبلهم، فلم يتردد لحظة في طرده. وأخذ يتقول البهتان ويتزيد في الحديث ويهول في الأمر حتى قطع على أخته الطريق إلى استرجاعه متى أرادته. فاستبدلت به خادماً كان سبباً في اضطرام الخصام بينها وبين أخيها، لأنها عقدت النية على أن تتزوج منه كما يؤكد العارفون. وقد قال لي صاحبي أن ذلك لن يكون وهو حي.

ذكرت هذه الحكاية على وجهها دون تزيد ولا مبالغة، ولم أحاول أن أنمقها أو أرققها، بل أرى إني أضعفتها وسخفتها وجعلتها جافية نابية بما استعملت فيها من العبارات الخاصة بلغتنا الرقيقة المهذبة!

لم يك هذا الحب ولا تلك السعادة ولا ذاك الهوى تلفيق كاتب ولا اختلاق شاعر؛ بل وجد كل ذلك على غاية من الإخلاص والنقاء في نوع من الناس نسميه نحن معاشر المتمدنين المهذبين فظ الأخلاق وحشي الطباع!

نشدتك اللّه أن تقرأ هذه الحكاية بتدقيق وروية. فقد كتبتها إليك وأنا هادئ ساكن، ولعلك ترى أثر ذلك في خطي فإنه لا يشبه نبش الدجاج كما عهدته. أقرأ يا وليم وفكر تجد هذه الحكاية أشبه بحكاية أخيك. فهذا ما أشعر به اليوم وذلك ما سألقاه غداً. على أنني لم أوت من الإقدام والعزيمة شطر ما أوتي ذلك البائس المسكين الذي اقارن نفسي به.

5 سبتمبر

عاقت زوجها في الريف عداء الأشغال فلم يحضر. فكتبت إليه بطاقة بدأتها بهذه الكلمات: «عزيزي الكريم وصديقي الحميم: أسرع في العودة ما استطعت، فإني أنتظرك بصبر قليل وسرور كثير». ثم جاءها صديق فأبلغها أن ألبير عاقته العوائق عن تبكير العودة. فتركت البطاقة في مكانها حتى وقعت في يدي مساء ذلك اليوم، فقرأتها ثم ابتسمت. فسألتني عن سر ابتسامي فقلت لها: «آمنت أن المخيلة أجل منح اللّه وأسنى هباته. لقد استطعت بفضلها أن أتخيل أن هذه البطاقة كانت مكتوبة إلي» فأمسكت عن الحديث وتبينت في وجهها الكدر فسكت.

9 سبتمبر

لقيت من الجهد ما لقيت في حمل نفسي على خلع هذه «السترة» الساذجة الزرقاء التي لبستها يوم رقصت مع شرلوت أول مرة. على أنني ما خلعتها إلا بعد أن حال حالها واستحال استعمالها. وخادعت نفسي فاتخذت سترة تشاكلها طرازاً ولوناً، ولبستها على صدار وسروال أسفرين كاللذين كانا علي يومئذ. ولكن هذه الحالة على شدة مشابهتها لتلك لم تؤثر في نفسي تأثيرها، ولم تسر قلبي سرورها. وما أدري لعل هذه الحالة على تراخي الزمن تحل من قلبي محلها. وتصبح عزيزة علي مثلها.

12 سبتمبر

غابت عن البلد أياماً تطلب ألبير في الريف. فلما عادت ذهبت أزورها فخفّت لمقابلتي، ومدت يدها إلي فقبلتها سكران من حميا الطرب. ثم طار كناري من فوق المرآة فوقع على كتفيها، فقالت وهي تستنزله على يدها بالمهل والرفق: صديق جديد استخلصته لأطفالي! لله ما ألطف وما أجمل! أنظر إليه! إنني حين أقدم إليه الخبز ينقره بلطف وهو يصفق بجناحيه. ثم يقبلني أنا أيضاً. انظر! وأدنته من فمها، فأقبل العصفور الأنيق على شفتيها الورديتين ينقرهما عجلان ملتذا كأنما يشعر بتلك السعادة التي يتذوقها ويجنيها. ثم قدمته إلي وقالت: لا بد أن يقبلك أنت أيضاً. فمر منقار العصفور من شفتيها إلى شفتي ونقرني نقرة سرت في جسمي سريان النسيم، وأشعرتني ببوادر اللذة والنعيم. ثم قلت لها: إن قبلاته لم تخل من معنى ولا غرض، فلعله يطلب القوت ويبحث عنه، وأرى أن هذه المداعبة لا تغنيه من جوع. فقالت: إنه يأكل طعامه من فمي أيضاً. ثم مدت إليه بعد الفتاة على شفتيها المفترتين عن ابتسامة حلوة تمثلت فيها لذة الحب السعيد، وعذوبة الحنان البريء. فوليت عنها بوجهي اتقاء لهذا السحر وقلت في نفسي: حرام عليها كل هذا! وما ينبغي أن تهيج وجداني بهذه المناظر: مناظر البراءة القدسية والسعادة العلوية! ولا يجوز أن توقظ قلبي كلما أنامته سخافات الحياة حيناً بعد حين.. ولم لا تفعل؟ إنها وثقت بي جد الثقة، وعلمت أني أحبها كل الحب.

15 سبتمبر

وليم! إني ليحزنني أن أجد في الناس ون لا تبلغ به كفايته إلى تقدير ما على الأرض من الأشياء القيمة النادرة. لعلك تذكر شجرتي الجوز اللتين تفيأتهما أنا وشرلوت في منزل القس يوم زرناه، تينك الشجرتين اللتين كانتا تملان قلبي بما خلص من سرور ولذة، وتفيضان على الفناء ما شاء الله من رخاء ونعيم: أغصان فينانة جميلة، وظلال وارفة قليلة، وذكريات جمة عذبة ترجع بالمرء إلى عهود أولئك القسس الكرام الذين غرسوهما. ولطالما ذكر لي معلم القرية اسم قسيس منهم حدثه جده عن صفاته الجليلة وأخلاقه

النبيلة، فكانت ذكراه تتمثل في خاطري جميلة طيبة كلما تفيأت هاتين الشجرتين. أتدري ما صنعت يد الأحداث بهما؟ حكى لنا بالأمس معلم القرية أنهما قطعتا! وأيمن اللّه لقد كان الدمع يجول في عينيه وهو يتحدث. قطعتا؟ عجيب ما أسمع! إني ليخيل إلي أن لو رأيت في غضبي ذلك البهيم الذي مد يديه إليهما بالقطع لأوردته حياض المنية. كيف لا ولو كان في فنائي مثل هاتين الشجرتين ثم أذوي إحداهما الكبر للبست عليها ثوب الحداد وقامت عندي قيامة الحزن، فكيف أطيق الصبر على مثل هذا المنظر؟

على أن ما يعزيني يا صديقي هو شعور الإنسان وإدراكه لمواطن الكمال، وامتعاضه لتشويه صور الجمال، فقد أخذ أهل القرية أجمعون يتذمرون، وعسى أن يكون في حرمانهم امرأة القسيس هدايا السمن والبيض احتجاج على ما جرته عليهم من الضرر. ذلك لأنها هي التي اقترفت ذلك الإثم. ولا تحسبنها زوجة صديقنا القسيس الشيخ فقد لحق بربه، وإنما هي زوجة القس الجديد الذي خلفه، وهي امرأة عجفاء معروقة العظم مسقامة فظة الطبع لا تألف ولا تألف، حمقاء تدعي العلم وتشارك في درس قوانين الكنيسة، تعمل بجد في إصلاح قواعد الانتقاد الخلقي في المسيحية على آخر طراز، وترفع كتفيها ساخرة بمخرقة «لافاتر»(178) وترهاته! وقد تخوّلها السقم وهدها المرض حتى لم تجد في أرض اللّه موضعاً لسرور ولا موطناً لفرح.

فترى أن مخلوقة على هذه الصفات حرية أن تجتث شجرتيّ من أصلهما. إنها تزعم أن الأوراق الساقطة تلوث الفناء وترطب جوه، وأن الأغصان تحجب عنها ضوء النهار، وأن الجوز إذا ما أينع قذفه الأطفال بالحجارة فيهيجون أعصابها، ويزيدون أوصابها، ويهوشون عليها وهي غارقة في الموازنة بين كينيكوت وسملر وميخائيلس(179)

ولما رأيت الامتعاض والأسف باديين على وجوه القرويين ولا سيما شيوخهم، قلت لهم: «ولماذا تحتملون هذا وتقبلونه؟» فقالوا: «إن الأمر في الريف للعمدة: إذا أراد فلا دافع لإرادته، وإذا حكم فلا معقب لحكمه».

على أن اللّه عز اسمه لم يشأ أن يهنأ الغانمون بالغنيمة، فقد أراد القسيس أن يستفيد هذه المرة من عبث امرأته، فواطأ العمدة على أن يقتسما ثمن الشجرتين، ولكن الخبر نمى إلى إدارة الأملاك فقالت لهما: مكانكما! وباعت الشجرتين بالمزايدة ورجع صاحبانا بصفقة المغبون. آه لو كنت أميراً! إذن لعرفت كيف أعامل امرأة القس والعمدة وإدارة الأملاك.

أمر غريب! أتمنى أن أكون أميراً ولو كنته لما همني كل ما في إمارتي من شجرا!

10 أكتوبر

غاية السعادة عندي أن أنظر إلى عينيها الدعجاوين. وأشد ما يؤلم نفسي أن ألبير لم تبد عليه دلائل السعادة التي كان يرجوها.. وإني على ما أعتقد أكون أسعد الناس.. لو... أنا لا أحب تقطيع جملي ولا تجزئة كلامي، ولكني في هذه المرة لا أستطيع التعبير عن ضميري بغير ذلك. ويظهر لي أن هذا الكلام شديد الوضوح.

12 أكتوبر

حل أسيان(180) من قلبي محل هوميروس: ويا لله أي عالم جلت فيه وردته في شعر هذا الشاعر السامي! عالم كله جلال وروعة! تجدني أجول فيه بين أشجار الخلنج(181) والعواصف الهوج ترجي السحائب الدجن في ضوء القمر الشاحب، فأرى خلالها اشباح آبائه وأجداده. وأسمع في قمم الجبال بين هدير السيل الجارف أنين أولئك الأرواح في أجواف مغائرها، وتأوه تلك الفتاة اليائسة الولهى وهي تريق بنفسها من الألم جاثية على الصخور الأربع التي ضمت عظام حبيبها، ذلك الحبيب الباسل الذي مات ميتة الأبطال في معركة شعواء دامية! ثم ألتقي بذلك الشاعر الأشيب وهو يجوس مغارس الخلنج ويجوب سهول الأرض منقباً عن آثار أجداده، فلا يجد وا أسفي عليه إلا مصارعهم من البلى، ومضاجعهم تحت الثرى، فيرجع بصره حينئذ حزنان شاكياً إلى كوكب المساء الزاهر وقد اختفت أضواؤه بين أحضان الأمواج المتلاطمة، فتعود إلى مخيلته ذكرى العهود الماضية والعصور الخالية، أيام كان ذلك الكوكب ينير للأبطال طريق المخاطر، ويبدد عنهم بضيائه ظلام

المخاوف، ويصب انواره الفضية على سفنهم وهي عائدة يحدوها النصر، وتزينها أكاليل الزهر، فتفعل الذكرى في قلبه ما تفعل. وأقرأ في أسرار وجهه أثر الحزن العميق والهم المبرح، وارى ذلك الشاعر الكريم وهو آخر نبعة من دوحته وحيداً على الأرض يتقدم إلى القبر بخطى مضطربة وأقدام متعبة، ويجد في استحضار طيوف آبائه فرحاً جديداً وسروراً مؤلماً، ثم يرسل نظراته إلى الأرض الباردة والأعشاب الطويلة المضطربة في يد الريح ويصيح: «إن المسافر الذي عرفني في شبيبتي وجمالي سيأتي ويسأل: أين الشاعر؟ أين ذهب الشريف بن فنجال؟ ثم يسير واطئاً لحدي بقدميه باحثاً عني فوق الأرض سدى!».

يا ويلتنا! ليتني يا صديقي وأنا أحترق بهذه النار المقدسة فعلت ما يفعل التابع الأمين الشجاع: أجرد سيفي وأنقذ أميري بضربة واحدة من حياة بئيسة وموت بطيء، ثم أرسل نفسي وراء هذا البطل المقدس إلى ذلك الملكوت الأعلى!

19 أكتوبر

يا لله! أي فراغ مروع أجد في صدري! وأي وحشة مخيفة أحس في قلبي؟ لقد أقول لنفسي أحياناً: «لو استطعت أن أضمها إلى صدري مرة واحدة، مرة واحدة لا أكثر: إذن لامتلأ ذلك الفراغ وزالت هذه الوحشة».

26 أكتوبر

أجل يا صديقي! تزيدني الأيام يقيناً بأن وجود الإنسان على هذه الأرض شيء تافه وأمر يسيره جاءت إلى شرلوت إحدى صواحبها تزورها فأخذتا تتناثان الحديث. وذهبت أنا إلى الغرفة المجاورة لغرفتها أبحث عن كتاب فيها. وأردت أن أقرأ فامتنعت علي مني القراءة، وسمج في عيني الكتاب؛ فتناولت القلم وأخذت أكتب، فسمعتهما تتحدثان بصوت خافت: تذكران من أخبار المدينة ما لا شأن له ولا خطر. قالت الزائرة: «فلانة مقدمة على الزواج

بعد قليل. وفلانة الأخرى مريضة مثقلة تسعل سعالاً جافاً، وتكاد عظمتا وجنتيها تخرقان الأهاب. وأرى جسمها الواهن يذوب ولا يثوب، ولا أراهن على حياتها بدانق».

وقالت شرلوت: «إن السيد «ن» كذلك أصابته علة فادحة». فأجابتها الأخرى: «نعم! أنه منتفخ وارم».

فطارت بي مخيلتي إلى أسرة هؤلاء البائسين المحتضرين، فرأيتهم كيف يديرون عن الحياة آسفين، ويقبلون على الموت خائفين؛ ولاحظت أنهم... وليم! إن هاتين الفتاتين تتحدثان عن أولئك الأصدقاء والأقرباء حديث المرء عادة عن موت رجل غريب.

كذلك أقلب النظر حولي في هذه الغرفة فأرى في كل جهة ملابس شرلوت وأوراق ألبير، وأنظر ذلك الأثاث الذي ألفته كله حتى هذه الدواة فأقول لنفسي: «أنظر يا فرتر إلى مكانك في هذا البيت، وإلى محلك من قلوب أهله! أنهم جميعاً يجلونك ويكرمونك، ولا تهنأ لهم كأس الصفاء دونك. تدخل المسرة على قلوبهم، ويكاد قلبك لا يخفق إلا بوجودهم. ولكن ليت شعري إذا بعدت عن هذا البيت، وخرجت من هذه الحلقة، أيشعرون بذلك الفراغ الذي أحدثه بُعدك، ويحسون ذلك النقص الذي أوجده فقدك؟ وإذا شعروا بذلك فهل يدوم هذا الشعور طويلاً؟».

وا أسفاه! إن الإنسان لسريع الزوال: يمحى ويزول حتى من المكان الوحيد الذي يتأكد فيه وجوده، وتثمر فيه عواطفه وعهوده. يزول من كرارات أحبائه وقلوب أعزائه، وذلك واحسرتاه يحدث في أسرع ما يكون!

27 أكتوبر

يقوم بنفسي أن أمزق صدري ورأسي كلما رأيت الناس لا يغني بعضهم عن بعض شيئاً. فلا يستطيع أحدهم أن يمد الآخر بشعاع من فكره، ولا بعاطفة من قلبه، ولا بإثارة من حبه.

وهل في قدرة إنسان أن يحبوني الحب والمسرة والحرارة واللذة إذا ما عدمت ذلك في نفسي؟

وهل في قدرتي أنا وقلبي فياض بالغبطة والسعادة أن أسعد إنساناً آخر قد وقف أمامي جامداً بارداً لا قوة فيه ولا حساسة؟

مساء 27 أكتوبر

لا يزال عندي من موارد الحياة ومذخور القوى مدد وفر؛ ولكن هوها يبتلع كل شيء! أجل! لا زلت أملك كثيراً، ولكن الكثير بدونها قل، والوجود بغيرها عدم.

30 أكتوبر

كم مرة هممت أن أضمها إلى صدري، وأطفئ بلثمها حرارة قلبي! ربَّاه! لا يعلم غيرك ما يكابد المرء من ألم وما يعاني من برح كلما رأى هذا الجمال الساحر يذهب أمامه ويجيء وليس من حقه أني مد يده إليه! على أن الغريزة البشرية تدعوه إلى تلك الحركة وتدفعه. أو ما رأيت الأطفال يجهدون أن ينالوا كل ما وقع تحت حواسهم وأدركوا بمشاعرهم؟ ـ وأنا!

2 نوفمبر

علم الله أني كثيراً ما أرقد وأنا أود وأرغب، بل آمل وأرجو، ألا أستيقظ. فإذا تنفس الصبح واكتحلت عيناي ثانية بضوء الشمس شعرت بحزن عميق وبؤس شديد. آه! ليتني أصبح فريسة للأهواء وطعمة للسوداء! أو ليتني أستطيع أن أحمل ذلك الخطأ على دهر أساء وإنسان عدا ومسعى أخفق! إذن لخف عني ذلك العبء الفادح عبء الشقاء والحزن الذي أنقض ظهري وأحرج صدري. واويلتاه علي! أنا جازم بأني المتجرم على نفسي. لا، لا! ما كنت متجرماً ولا آثماً؛ وإنما كنت على الأقل مصدراً لشقوتي وبلائي، كما كنت قبل اليوم

منبعاً لغبطتي ورخائي. أجل لم أعد ذلك الرجل الذي كان يسبح آنفاً في فيض من الوجدان ولج من العواطف، وتتجلى له في كل خطوة من خطواته جنة بهيجة، ويرى قلبه أهلاً لأن يجد في الحب عالماً بأسره. مات الآن ذلك القلب وغاصت ينابيعه، فلم يعد يجيش بالإعجاب والذهول والحمية، وجفّت شئون عيني فما نبض بقطرة، وذوت حواسي حين لم يسقها الدمع البرود، وضافني الهم وساورني القلق فتخدد جبيني وجف ماء شبابي. أنا أتألم جد الألم لأني فقدت ما كان يجعل حياتي بهيجة لذيذة. فقدت تلك القوة المقدسة المنعشة التي كانت تخلق حولي عوالم كثيرة! فتجدني الآن إذا اطلعت من النافذة فرأيت عروس الصبح تخترق أشعتها حجب الضباب فوق الهضاب البعيدة، وتضيء مروج الوادي الخالية الصامتة؛ وأبصرت النهر الهادي يسعى إلي منساباً بين أشجار الصفصاف العارية انسياب الأفعوان، أقف وقفة المتعجب المرتاب أسائل نفسي: لمَ أصبحت هذه الطبيعة الجميلة أمامي باردة خامدة كأنها صورة مطبوعة ملونة؟ وكيف لا يستطيع كل ما أرى من جمال وسحر أن يحمل القلب على أني رسل إلى المخ قطرة واحدة من الهناءة والغبطة! لقد بلغ بي ذلك أن أقف أمام الخالق كأنني الوعاء الفارغ والينبوع الناضب! ولطالما خررت ساجداً أجأر بالدعاء إليه أن يجود عيني بالمطر، كما يستقي الفلاح الغمام إذا رأى السماء قد أماطت عن وجهها قناع الحياء، ووجد الأرض قد أجهدها العطش وأعوزها الماء.

على أني أشعر وا أسفاه أن اللّه لا يمنحنا المطر والصحو بتلك الأسئلة الملحفة والأدعية المزعجة. وما كانت تلك الأزمن اللائي أتحسر عليهن سعيدة إلا لأني كنت أنتظر نعم اللّه بالأناة والصبر، وأتقبل النعيم الذي يغدقه علي بالحمد والشكر.

8 نوفمبر

لقد لامتني على سرفي وإفراطي، ولكن برقة ولين وعطف! قالت لي وقد رأتني منذ أيام أشرب الكأس الهاء وتسلية فأمعن في الشراب وأسترسل حتى آتي على مافي الزجاجة، قالت: «خل عن هذا وفكر في شرلوت» فقلت لها: «أفكر فيك؟ وهل تحتاجين أن تأمريني بذلك؟ أنا أفكر.. كلا لا أفكر، وإنما أنت دائماً نصب عيني وأمام نفسي، حتى في صباح هذا

اليوم كنت جالساً في الموضع الذي نزلت فيه من المركبة آخر مرة». فعطفت الحديث إلى جهة أخرى حتى لا أسترسل في هذا الموضوع.

آه! لقد ضاع رشدي يا صديقي! وأنها لتصنع بي ما تريد، وتتخذ مني ما تشاء!

15 نوفمبر

أشكر لك يا وليم ولاءك الصادق ونصحك الخالص، وأناشدك اللّه أن تخفض عليك جأشك وتدعني أشرب الكأس حتى الثمالة فلا يزال فيّ على الرغم من مشقتي ولغوبي فضل من القوة يمسكني إلى غاية الأمد.

أنا أعظم الدين وأجله كما تعلم، وأعتقد أنه السند الأقوى للنفوس الوانية، والمورد العذب للقلوب الصادية. ولكن.. قل لي بربك أيستطيع ان يكون كذلك لجميع النفوس؟ أجل بصرك في هذا العالم الفسيح تجد ملايين من الناس ما أجدى الدين ولن يجدي عنهم شيئاً، سواء أوعظوا به أم لم يوعظوا. ألم يقل المسيح نفسه إن الذين وهبهم اللّه له سيكونون معه؟ فليت شعري ما حالي إذا كان اللّه قد استخلصني لنفسه، ولم يهبني له كما يحدثني بذلك قلبي؟... أعيذك باللّه أن تفهم كلامي على الخطأ أو تحمله على التهكم! فما أردت إلا أن أكشف لك عن دخيلة نفسي. ولولا ذلك لآثرت الصمت ضنا بكلامي أن يذهب ضياعاً في موضوعات يجهلها كل إنسان مثلي. ولعمري ما نصيب الإنسان من حياته؟ هل نصيبه إلا أن يحمل عبء الشقاء ويشتف كأس الألم؟ وإن كان رب السموات والأرض قد استمر(182) هذه الكأس واجتواها(183) حين وضعها على شفته البشرية، فكيف أتظاهر بالجلد وأتستر بالرياء، وأدعي أن هذه الكأس عذبة سائغة؟ لماذا أخجل إذا رجفت قوائمي فرقاً من هول تلك الساعة الرهيبة، ساعة يرتعد جسمي بين الوجود والعدم، ويلمع الماضي في هوة المستقبل المظلم لمعان البرق في حلك الليل، وينخسف كل ما حولي من الأشياء ويبيد، ويقبر معي العالم بما فيه أجمع! ألم يسمع الناس ذلك المخلوق(184) المثقل المكروب يقول وقد رأى نفسه يتردى في الهاوية دون أن تنفعه حيلة، أو تغني عنه وسيلة: «رباه!

رباه! لماذا تركتني؟» فهل أستحي بعد ذلك أن أهتف بهذه الجملة فزعاً من تلك اللحظة التي لم ينج منها رب السموات الذي يطويها طي السجل للكتاب.

21 نوفمبر

شرلوت لا ترى ولا تشعر أنها تجهز السم الذي سيهلكني وإياها معاً؛ وأنا أعب ذلك الشراب المشئوم بشغف ولذة. وإلا فماذا تقصد بهذه النظرة الحنون التي تلقها علي غالباً؟ غالباً! كلا بل أحياناً. وماذا تريد بهذا التساهل في قبول ما يبدر مني أثناء الكلام في شرح عواطفي! ولماذا أقرأ في جبينها الرثاء لمصابي، والإشفاق علي من أوصابي؟ وأعجب من هذا أني لما أردت الإنصراف من بيتها أمس مدت إلي يدها قائلة: «مع سلامة الله يا عزيزي فرترا». عزيزي فرترا؟؟ تلك كانت أول مرة دعتني فيها عزيزاً. فتمشت حميا هذه الكلمة في أعضائي، وأخذت أرددها وأعيدها التذاذاً بذكرها، وانتعاشاً بسكرها. وفي المساء حينما أويت إلى مضجعي واستسلمت لأحاديث النفس، وهواجس الفكر، بدرت مني هذه الجملة: «ليهنك النوم يا عزيزي فرترا» فلم أتمالك أن ضحكت من نفسي وسخرت من أمري.

24 نوفمبر

إنها تشعر بألمي وشقائي، وتدرك سبب همي وحقيقة دائي. لقد نظرت إلى اليوم نظرة نفذت إلى السواد من قلبي؛ وذلك أني لقيتها في البيت وحدها فوقفت حيالها موقف الأبكم، وأخذت هي تحدق النظر في شخصي وتستقصيه، وقد اختفى ما كنت أراه فيها من الجمال الساحر والذكاء النادر، فلم يبق إلا نظرات سامية ترسل الرثاء والشفقة، وتفيض الحنان والعطف. ليت شعري لمَ لم أجرؤ على أن أرتمي بين قدميها؟ لمَ لم أجرؤ على أن أطوق عنقها بذراعي وأجاوبها بلسان القبلات على هذه النظرات الوديعة. ثم رجعت بصرها إليها وفزعت إلى بيانها فغنت عليه أنشودة جميلة مؤثرة بصوت أحلى من الأماني وأعذب من نسمات السحر.

لم أر كاليوم شفتيها مهبطاً للسحر ولا مسقطاً للجمال! لقد كان يخيل إلي أنها تنهج، وأن شفتيها لا تنفرجان إلا لتنسم النغمات الحلوة الصاعدة من البيان، وأن فمها النقي الطاهر لا يردد إلا صدى هذا النغم السماوي العذب. آه لو كنت أستطيع أن أقول لك ذلك كما أحسه!

لم أقو على مقاومة ذلك طويلاً فخضعت وأذعنت، وأخذت على نفسي هذا الموثق: «لا بد لا أدنسكما بالقبل أيتها الشفتان اللتان تطير عليهما أرواح السماء».

على أنني أريد.. آه لكأني أرى أمام نفسي حائطاً يحجزها عما تريد! أريد أن أذوق هذه السعادة ثم أموت تكفيراً عن هذه الخطيئة... خطيئة؟

16 نوفمبر

أقول لنفسي أحياناً: يا نفس أنت واحدة من النفوس في هذا الحظ. وأولئك الناس حولك تستطيعين أن تعديهم سعداء، وهيهات أن تجدي فيهم من شرب من نقيع الحنظل ما شربت. فإذا ما قرأت لشاعر من شعراء الأقدمين خيل إلي أني أنظر في قلبي، وأقرأ صحيفة لبي، فيهيج بي الوجد ويشتد علي الألم وأقول: والهفتاه! وبأساء الحياة ما لقيت؟

20 نوفمبر

هيهات، هيهات أن أرجع لنفسي وأعود لحممي! فحيثما أوجه ألق خيالاً يهد عمادي ويذهب رشادي. اليوم! يا للحظ! يا للإنسانية! اليوم وجدت بي أقهاء(185) عن الغداء فخرجت قبيل الظهر أتنزه على ضفة النهر؛ وكانت الحقول صامتة موحشة، والريح الغربية تهب من ناحية الجبل بليلة باردة، والسحائب الجون الممطرة تتراكم فوق الوادي طبقة فوق طبقة؛ فرأيت رجلاً عليه طمر أخضر يمشي منحنياً بين الصخور كأنما يبحث عن بعض أعشاب الجبل. فلما أحس خطاي التفت فإذا سحنته غريبة تنم عن حزن دخيل هادئ، بيد أنها تنبئ عن نفس كريمة طيبة، وشعر جثل أسود قد اتخذ منه عقيصتين لوهما بدبوسين في مقدم رأسه؛ ثم أرسل باقيه جديلة جديلة غليظة تنوس(186) فوق ظهره. فعلت من هندامه

وبزته أنه من أوساط الناس فلا يستعض إذا دخلت في أمره واستفهمته عن بعض شأنه. فدنوت منه ثم سألته عما يبحث. فتنهد تنهداً عميقاً ثم قال: «أبحث عن زهور، ولكني لا أجد منها شيئاً». فقلت له باسماً: ذلك لأننا في غير فصل الزهور. فقال الفتى وهو يدنو مني: «بلى، إن في الرياض زهوراً كثيرة. وفي حديقتي ورود شتى ونوعان من زهر العسل أعطاني أحدهما أبي؛ وهو ينبت كما ينبت النجيل، ومنذ يومين أبحث عنه فلا أجده. كذلك عندي في كل آن من الأزهار الأصفر والأزرق والأحمر والقنطاريون ذو الزهيرات الجميلة. على أنني لا أجد من كل ذلك شيئاً!».

فلاحظت في هيئته ولهجته شيئاً غريباً خفياً. فسألته بعد أن لويت الحديث: «وماذا تصنع بهذه الزهور؟» قال: وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة ووضع أصبعه على فمه: «لا تنم علي ولا تخني، سأصنع من هذه الزهور طاقة لحبيبتي». فقلت له: «هذا منك حسن جميل». فقال لي: «إن عندها أشياء كثيرة. إنها غنية!».

ـ وهل هي مع ذلك تحب طاقاتك؟

ـ أوه! إن عندها حلياً وتاجاً.

وما اسم هذه الحبيبة؟

ـ لو شاءت الجمعية(187) العمومية أن تنقذني ما أريد من المال لكنت اليوم رجلاً آخر. ولقد أتى علي زمن كنت فيه رخي الصدر مثلوج الفؤاد. أما الآن فقد قضي الأمر وأصبحت... ثم رفع إلى السماء طرفه الباكي فعبر بهذه الحركة عما يريد فقلت له: «إذن لقد كنت سعيداً؟» فقال: «لا أود إلا أن أكون كما كنت. لقد كنت جذلان مرحاً كأنني السمكة في الماء».

وأنا لكذلك إذ رأيت عجوزاً تتقدم إلينا وهي تنادي: «هنري! أين أنت يا هنري؟ لقد طلبناك في كل مكان فما وجدناك. هلم إلى الغداء». فتقدمت إلى العجوز وسألتها: «هل هذا ولدك؟»

فأجابت: «نعم ولدي! واحسرتاه عليه! لقد فجعني الدهر فيه فجيعة أليمة». فقلت لها: «وكم لبث في هذه الحال؟» فقالت: «لله الحمد! عاوده منذ ستة شهور هدوؤه وسكونه. أما قبل هذه المدة فقد لازمه الهياج الشديد سنة كاملة قضاها في البيمارستان مقيداً مغلولاً. وها هو ذا الآن وديع هادئ لا يؤذي أحداً ولا يضر مخلوقاً. غير أنه يشغل باله ووقته بذكر الملوك والأباطرة. عهدي به غلاماً باراً وديعاً يعينني على اكتساب القوت واحتمال العيش بخفة يده وحسن حظه، فإذا به قد تحول فجأة إلى تفكر عميق وانقباض محزن، ثم إلى حمّى صالب(188) وهذيان مستمر، ثم انقلب إلى ما تراه عليه الآن. لو كنت أستطيع أن أقص عليك يا سيدي كيف...».

فحجزت سيل هذا الكلام الدافق بقولي لها: «وما أمر تلك الأيام التي يزعم أنه كان فيها سعيداً؟» فجرت على شفتيها ابتسامة الإشفاق والرحمة وقالت: «وارحمتاه لهذا المجنون! أنه يرمي إلى تلك الأيام التي كان فيها مستلب العقل فاقد الشعور أيام كان في البيمارستان مدلها غائب الرشد! تلك أيام لا يبرح آسفاً عليها مشوقاً إليها فخوراً بها».

فوقع هذا الخبر على مسمعي وقوع الصاعقة، فوضعت في يدها قطعة من النقود ثم وليت على عجل ميمماً نحو المدينة مردداً في نفسي هذا الكلام: أهذه هي الأيام التي كنت فيها سعيداً؟ أيام كنت طروباً مرحاً كأنك السمكة في الماء! رباه يا رب السموات والأرض! أكذلك قضيت على بني آدم ألا يكونوا سعداء إلا قبل أن يوهبوا العقل أو بعد أن يُسلبوه؟

أيها البائس! لشد ما أحسدك على انقباضك الذي يعزلك، وجنونك الذي ينحلك! أنت تخرج مملوءاً بالأمل تبحث لملكتك عن الزهور في جوف الشتاء! ثم تتألم لأنك لا تجد، ولا تدري لماذا لا تجد! وأنا... أخرج بغير أمل، وإلى غير قصد، ثم أعود إلى البيت كما خرجت منه... تتخيل أنك تكون رجلاً آخر إذا شاءت الجمعية العمومية أن تعطيك المال الذي تريده... طوبى لك أيها المخلوق السعيد! لقد استطعت أن تعزو شقاءك إلى أسباب دنيوية بشرية، وجهلت أن في قلبك المضطرم ومخك المضطرب علة شقائك ومصدر دائك! وأن جميع ملوك الأرض لا يملكون لك شفاء ولا يدفعون عنك بلاء!

ألا أهلك اللّه باليأس رجلاً يهزأ بالمريض الذي يقطع الشقة البعيدة إلى المنبع السحيق الذي يزيد في سقامه، ويضاعف آلام حمامه.

ولا أبقى اللّه على من تزدري عينه ذلك المنكود الذي يحج البقاع المقدسة تنفساً لكربة نفسه، وتفريجاً لشدة ألمه، وتسكيناً لثائرة قلبه، وتخلصاً من وخز ضميره! أليست كل خطوة يخطوها في هذا الطريق الوعر نقطة مرهم تضمد جراح نفسه، وكل ليلة يقضيها بعد هذا السير الملغب تخفف من عناء بؤسه؟

ذلك ما تجرؤون أن تسموه جنوناً ووهماً أيها المتشدقون المستلقون على وسائدكم الوثيرة الرخصة! جنون ووهم!

اللهم يا من ترى عبراتي المسفوحة! أكان حقاً عليك أن تجعل للإنسان ـ وقد خلقته بائساً ضعيفاً ـ أخوة يحرمونه العزاء في محنته وخصاصته بسلبهم إياه ذرة الإيمان بك والأمل فيه؟ وهل اعتقادنا في نبات الطب وعصير الكرم إلا اعتقاد فيك وإيمان بك وبما أودعته فيما يحيط بنا من خواص الشفاء والراحة التي تحتاجها في كل آن؟

أيها الأب الذي لا أعرفه، والإله الذي كان يشغل جوانب قلبي فيما مضى ثم زوى الآن وجهه عني! أدعني إليك وكلمني! لا تلزم جانب الصمت فإن نفسي التواقة الصادية تشتهي أن تسمعك. أي والد يتحمله الغضب إذا رأى ولده يترامى بغتة بين حضنيه وهو يصيح: «هأنذا يا أبي قد عدت إليك! فلا تحل غضبك علي إذا لم أرد أن أتم الرحلة التي حددتها لي إرادتك. لقد وجدت العالم في كل مكان هو العالم: عناء وعمل وجزاء ولذة. وماذا يجدي على كل ذلك؟ أنا لا أكون سعيداً إلا حيث كنت، ولا أريد أن آلم وألذ إلا حيث أنت» فهل ترضى أيها الأب السماوي الرحيم أن تذود عن بابك ذلك الطفل المتوسل الضارع؟

أول ديسمبر

وليم! إن الرجل السعيد الشقي الذي حدثتك عنه في الرسالة الأخيرة كان كاتب سر لوالد شرلوت. وقد نبت حبها سراً في قلبه، ثم خبله العشق ولج به الهوى فأعلن المكتوم وأظهر المضمر، فصرفه الوالد عن عمله، وحال بينه وبين أمله، فاعتراه مس ذهب بالبقية الباقية من عقله.

هيهات أن تشعرك هذه الكلمات الجافة ما أصابني من الذهول حين قص علي ألبير هذه القصة بدم فاتر ولهجة باردة وحالة قد تكون أشبه بحالتك وأنت تقرأها!

4 ديسمبر

حنانيك يا صديقي! لقد وهى جلدي، ووهن صبري، وأصبحت لا أتمالك من الوجد، ولا أتماسك من الجوى. كنت اليوم جالساً بجانبها وهي توقع على بيانها ألحاناً مختلفة بما شاء اللّه من قوة تعبير وشدة تأثير، وأختها الصغيرة تلبس عروسها الثياب على ركبتي، فاغرورقت عيناي. وطأطأت رأسي، فوقع بصري على خاتم الزواج في أصبعها، فانحل عقد الدمع وانهل انهلال القطر. وما هو إلا أن فجأتني بتوقيع ذلك اللحن القديم العذب الذي أحبه حتى خف ما بي وسرى عني. بيد أني تذكرت به الماضي. وتفكرت في تلك الأوقات التي كنت أسمع فيها هذا اللحن وما أعقبها من الأيام السود والآلام المخفقة، فنهضت أمشي في الغرفة ضيق النفَس مكروب النفس مشرد العقل، ثم لم أتمالك أن دلقت إليها وتراميت عليها قائلاً: «نشدتك اللّه يا شرلوت ألا كففت!» فكفَّت عن العزف وحدقت النظر فيّ وقالت باسمة «فرتر! إنك لا تعاف طعامك السيغ الهنيء إلا لمرض شديد، فأتوسل إليك أن تذهب فتهدئ روعك وتريح نفسك».

فخرجت من عندها. و... رباه! إنك ترى ما أكابد من عناء وحزن، فاجعل لهذا الشقاء حداً.

وأما غفوت فإنها تملأ جوانب نفسي وتشغل فراغ قلبي. هنا، إذا أنا أغمضت جفني. هنا تحت الجبهة حيث تتركز القوة الباصرة، أرى عينيها الدعجاوين. هنا! لا أستطيع أن أشرح

لك كل هذا. كلما أغمضت عيني رأيت عينيها هناك مفتوحتين أمامي وفيَ كالبحر أو كالهاوية فلا أحس غيرهما في جبهتي.

عمرك اللّه ما الإنسان وما قيمة تألهه وصلفه؟ أما تخذله قواه وتخونه عند مس الحاجة إليها، وضرورة الاعتماد عليها؟ أما يشعر عندما يغرقه السرور أو يحرقه الحزن أنه موقوف عند حدوده، ومردود إلى إحساسه البارد بكونه ووجوده، على حين يرجو أن يسبح ويفنى في محيط اللانهاية بكبر وسلف؟

(164) يمك روحي: ينزفها، من قولهم مك المخ: مصه جميعه.

(165) يشبه نفسه في عمله الشاق بالمجرمين الذين كانوا قديماً يعاقبون بالتجديف في سفن الحكومة Galéeos de L’étas أزمنة مختلفة.

(166) من قواعد المدنية الغربية أن يجلس الناس على كراسي المائدة حسب أقدارهم. فمن كان أدنى إلى رئيس المائدة كان أدنى إلى الشرف من غيره.

(167) التلاع جمع تلعة وهي القطعة المرتفعة من الأرض.

(168) زموا بأنوفهم: شمخوا بها كبراً وصلفاً.

(169) الصوان: وعاء الثياب «الدولاب».

(170) المشيأ: المختلف القبيح.

(171) سمع به: أذاع عنه عيباً وفضحه.

(172) مرج لسانه في عرضه: أطلقه في ذمه واغتيابه.

(173) حميم: ساخن.

(174) الفروج: ماب ين قوائم الفرس. وسار ملء فروجه إذا عدا عدواً شديداً.

(175) كسر من ذرعه: تبطه عن عزمه.

(176) يفري الفري: يأتي بالعجاب في عمله.

(177) أجرضه بريقه: جعله يبتلعه بالجهد من هزء أو حزن أو غيظ.

(178) لافاتر: Lavater عالم من علماء الدين وفيلسوف من فلاسفة الألمان وشعرائهم. له رأي في علم الفراسة ومؤلّف ضخم فيه (1741 ـ 1801).

(179) كينيكوت عالم ديني إنجليزي (1718 ـ 1783)، وسملر عالم ديني ألماني (1725 ـ 1791)، وميخائيل فيلسوف ألماني بحاثة (1817 ـ 1791).

(180) أسيان: شاعر ارلندي عاش في القرن الثالث للميلاد، وهو ابن فنجال ملك «مورفن» وقد نسب إليه الشاعر الارلندي ماكفرسون ديوان شعر ونشره تحت اسمه هذا في عام 1760. وهو شعر تنبجس منه العبرات، وتنقمه فوقه الحسرات، ستقرأ منه في اواخر الكتاب نشيداً ترجمه فرتر لشرلوت.

(181) الخلنج La bryére شجر كالطرفاء زهره أحمر وأصفر وأبيض وحبه كحب الخردل ينبت في الأرض البور.

(182) قد استمرها: وجدها مرة.

(183) اجتواها: عافها وكرهها.

(184) المخلوق: يريد به المسيح عليه السلام ساعة صلب.

(185) اقهى عن الطعام: كرهه ولم يشتهه.

(186) تنوس: تتحرك.

(187) الجمعية العمومية les états généraux هي ما كانت تمثل في تلك العصور طبقات الأمة الثلاث: الإشراف والكهنة والعامة.

(188) حمى صالب: شديدة الحرارة معها رعدة، وهي خلاف النافض.

من الناشر إلى القارئ

كنا نود لو بقيت في أيدينا حكاية الفترة الأخيرة من حياة صديقنا فرتر بإملاء قلبه وخط يده، فلا نضطر إلى قطع سلسلة رسائله بما سنقصه على القارئ من أخباره وحوادثه.

وتلك الأخبار نقصها ونرويها على ما سمعناه من أفواه الثقاة الذين خالطوه ولابسوه فكشفوا دخيلة سره، وعرفوا حقيقة أمره.

حكاية فرتر واضحة بسيطة، والناس في روايتها لسان واحد، لا يكادون يختلفون إلا في مسائل ثانوية لا خطر لها. فأما تشعب الآراء وتفرق الأهواء فهو في الحكم على أخلاق الأشخاص والتقدير لأفعالهم. فسبيلنا إذن أن نقص ما علمناه بالبحث الدقيق والاستقصاء البالغ مضمنين ما تركه لنا فرتر من الرسائل والكت بدون أن نهمل منها ورقة، أو نحذف منها حرفاً، أو نصدر عليها حكماً، فإن من الصعب الوقوف على البواعث الحقيقية والأسباب الجوهرية للعمل البسيط إذا وقع من قوم يعلون على الدهماء. ويرتفعون عن العامة.

* * *

تغلغلت أصول الخور والضجر والكآبة في نفس فرتر؛ ثم ربت وتشعبت، ثم طالت وتشاجنت، حتى هيمنت على كيانه، وسيطرت على جثمانه ووجدانه، فتهوش نظام حياته، وتنافر انسجام وجوده، وأخذت قواه الطبيعية تذيبها نار همومه المستعرة المضمرة، تلك النار التي أسلمته إلى الضنى والوهن بعد أ ن نجم عنها ما نجم من شر النتائج وسوء الأثر، وأصبح ما يلقاه من الهم ومكافحة هذا الغم أشد عليه مما لقيه من جميع الآلام التي كافحها إلى الآن.

برّح بقلبه لاعج الهم حتى أودى بقوة فكره وحدة خاطره وتوقد ذكائه، وصار لا يجد في مجالس الأنس غير الوحشة، ولا في سرور الصحاب إلا الحزن، ولا يمر عليه يوم دون أن

يصعد في سلم الشقاء درجة. وكلما أرهقه البؤس ولج به الجوى كان أكثر تألماً وأشد تبرماً.

وإليك ما يقوله أصحاب ألبير في أمره وأمر فرتر: يقولون ويؤكدون أن فرتر لم يعرف كيف يقدر رجلاً فاضل الخلق رحب الأناة لا غرض له إلا أن يحتفظ برغيبة قلبه ومصداق أمله، على حين يسرف فرتر في قواته، ويبذر في خيراته، ولا يدخر غير الفاقة والألم لمساء حياته. ألبير لم يغيره زمن القليل، بل ظل على حاله التي امتدحها فرتر وأجلها منذ تعارفا وتآلفا. يحب شرلوت حباً دونه كل شيء، فهو يفخر بها، ويباهي بحبها، ويتمنى أن تذكر في الناس جميعاً بما لم تنله امرأة من الجلالة والكمال.

فهل عليه من بأس إذا ربأ بها عن مواطن الشبهات، وأبى على غيره أن يساهمه الاستمتاع بحبها وقربها ولو كان ذلك الاستمتاع طاهراً بريئاً؟ ثم أنهم مجمعون على أن ألبير كان يترك غرفة امرأته إذا دخلها فرتر، لا كراهة منه لصاحبه، ولا أزوراراً عنه بجانبه، بل لأنه كان يشعر أن وجوده يكدر صفوه ويحرج صدره.

* * *

توعك أبو شرلوت فلزم الفراش وبعث إليها بمركبته يدعوها إليه، فذهبت تعوده في يوم من أيام الشتاء جميل؛ وكانت طلائع الثلج قد سقطت على الأرض فطبقت البلاد. ولحق بها فرتر في صباح اليوم التالي ليصحبها في العودة حين لا يتمنى لألبير أن يوافيها هناك. وكان في أثناء ذهابه مهموماً فلم يؤثر صفاء الجو في قلبه المضطرب إلا قليلاً: كان يحس نفسه رازحة تحت عبء فادح من الكرب. ويخيل إليه أن صوراً محزنة تملأ فكره وتقفو أثره. وكان خاطره مبلبلاً فلا ينتقل من فكرة مؤلمة إلا إلى فكرة أشد منها ألماً.

كان في شقاق دائم مع نفسه، فلم ير لذلك فيمن حوله من الناس إلا مظاهر للاضطراب والقلق: ظن أنه خب(189) على ألبير امرأته وأفسد بينه وبينها ذات البين. فأقبل على نفسه يلومها فيه شيء من الحنق على ألبير؛ وأخذ يردد في خاطره وهو في طريقه إلى شرلوت هذه الأفكار، ويقول لنفسه هذه الكلمات، وهو غضبان محتد: «أجل! أجل! لقد

تحول هذا القران المملوء بالحب الخالص، والحنان الفياض، والجاذبية المستمرة، والوفاء الباقي على الزمن، إلى اشمئزاز وملل وقلة اكتراث. ألم تلهه المسألة الصغيرة الحقيرة عن هذه المرأة العزيزة التي «يعبدها»؟ هل قدر سعادته حق قدرها؟ أم هل عرف على الأقل قيمة هذه الزوجة الصالحة فعاملها بما تستحق من إكبار وإجلال؟

لا يعرف إلا أنه مالكها! نعم هو مالكها! وعندي بذلك علم. وقد كنت أحسبني ألفت هذه الفكرة واعتدتها، فإذا هي لا تزال توقد صدري بالغضب، وستطفئ سراج حياتي يوماً ما.

هل ثبتت صداقته لي على التجربة وحالت بينه وبين الوساوس؟ ألم ير في حبي لشرلوت تعدياً لحدوده تأنيباً صامتاً على إهماله، وتنبيهاً دائماً على إغفاله؟ ونقضاً لعهوده؟ ألم يجد في رعايتي لها عنايتي بها بلى كل ذلك أعلمه وأحسه! إن منظري أصبح لا يروقه، ومحضري صار عبئاً عليه لا يطيقه، فلا ينبغي الآن إلا أن أفارق وأرحل».

* * *

كم مرة تمهل فرتر في سيره وهو موفق فيه! وكم مرة وقف ييد أن يعود أدراجه! ولكنه تابع سيره مدفوعاً بالرغم منه، إلى أن بلغ منزل الصيد بين حديث نفسه ووساوس قلبه. دخل ثم سأل عن شرلوت وعن الشيخ فلاحظ أن في البيت حركة وجلبة. وجاء أصغر الصبية يقول: إن حادثة وقعت اليوم في ولهم. فقد عثروا بأحد الفلاحين قتيلاً. فلم يلق فرتر باله إلى هذا الخبر. ودخل البهو فوجد شرلوت تحاول أن تثني أباها عن الذهاب وهو مريض إلى مكان الحادثة لتحقيق الجريمة، فإن القتيل وجد صباح اليوم مقتولاً على باب داره ولم يعثروا على قاتله. غير أن الناس يظنون ويلقون التهم، فيأولون أن القتيل كان فلاحاً لامرأة أيم، وكان عندها من قبله فلاح آخر طردته على أثر شجار نشأ من سوء سلوكه. فلما سمع فرتر هذا البيان ارتاع وارتعد. ثم انتصب قائماً يقول «رباه! أذلك ممكن؟ لا بد لي من الذهاب إلى مكان الحادث» ثم انطلق يعدو إلى ولهم وقد تواردت على قلبه الذكر، ولم يخامره شك في أن القاتل هو ذلك الرجل الذي حادثه طويلاً وأحبه كثيراً. ولما بلغ الزيزفون وهو في سيره إلى الحانة التي سجوا أمامها القتيل داخله خوف وفزع، وقد

كان ذلك المكانفيما مضى موضع حبه وإعزازه. إن عتبة البيت التي كان يلعب حولها أطفال الحي قد لطخها الدم. وإن الحب الخالص والوفاء الشديد والعواطف السامية قد حالت إلى عنف وقتل. وأن الأشجار الباسقة قد تعرت من الورق واكتست بالجليد؛ وأن الأسوجة الشجرية المعقودة على حائط المقبرة القصير قد جردت من سندسها الأخضر، وأمكنت الناظر أن يرى من خلالها القبور مغطاة بالثلج!

لم يكد يدنو فرتر من الحانة ويرى أهل القرية وقد تجمعوا أمامها، حتى ارتفعت الأصوات فجأة. وأبصر على البعد قوماً شاكي السلاح قد أخذوا بتلابيب رجل يقول الناس أنه القاتل. رآه فرتر وملأ منه عينيه فانجلى الشك وأيقن أنه هو. هو الفلاح عاشق تلك الأيم، هو الرجل الذي لقيه منذ قليل يهيم في الحقول مستسلماً لحنقه الصامت ويأسه المكنون.

تقدم فرتر نحو الأخيذ وقال له: «ماذا صنعت يا مسكين؟» فنظر إليه الرجل نظرة هادئة كعادته دون أن ينبس. كان جوابه إليه هذه الجملة: «إنها لن تنال أحداً ولن ينالها أحد». ثم قادوه إلى الحانة وتولى فرتر مسرعاً.

زعزعت هذه الصدمة القوية كيان صديقنا البائس وفتت في عضده. بيد أنه تماسك حين وقع في نفسه وهيمن على فكره أن ينقذ هذا الرجل الذي يدرك بؤسه وشقاوته، ويرى على الرغم من إجرامه براءته ونزاهته. واعتقد أنه سيحمل الناس على متابعته والأخذ برأيه. بدأ في نفسه هذا الخاطر رجاء وأمنية، ثم ما نشب أن عاد حقيقة ممكنة. وأخذت كلمات الدفاع المؤثرة تنثال على شفتيه. فانطلق وشيكاً يؤم بيت الصيد ولسانه في الطريق يردد عالياً ما سيقوله للحاكم في هذا الموضوع.

ولج فرتر البهو على الحاكم فوجد معه ألبير فاضطرب قليلاً ثم تمالك وأخذ يذكر رأيه في أمر القاتل بحدة وحمية، ويفيض في الدفاع عنه بإخلاص وحسن نية، فلم يترك كلمة في تبرير عمل وتبرئة رجل إلا قالها، والحاكم في أثناء ذلك يهز رأسه دون أن يتحرك قلبه لهذا الدفاع المخلص المؤثر كما توقعه الحضور من قبل. وأكثر من ذلك أنه لم يترك صديقنا يتم دفاعه. بل احتج على كلامه بقوة ونعى عليه أن يتولى الدفاع عن قاتل وأظهر له أن السير

على هذا السنن يلغي القوانين وينقض حبل الأمن، وأنه لا يتسطيع الدخول في هذا الأمر دون أن يحمل من ورائه تبعة عظمى. ثم ختم قوله بأن المرء محتوم عليه أن يساير ولا يتعدى حدود القانون.

لم يسلم فرتر بهذه الأسباب والتمس من الحاكم أن يغض الطرف إذا مهد للشاب سبيل الهرب. فرفض الحاكم هذا السؤال أيضاً.

ودخل ألبير في الحديث فعزز رأي الشيخ وشايعه. فأذعن فرتر لحكم الكثرة، وخرج على وجهه ونفسه تكاد ترهق من الألم بعد أن سمع الشيخ يكرر هذه الجملة: «ليس في مقدور أحد أن ينقذه» فأثرت فيه هذه الكلمات تأثيراً بليغاً يظهر في جملة كتبها ذلك اليوم على رقعة وجدت بين أوراقه وهي:

«ليس في مقدور أحد أن ينقذك أيها البائس! أجل أعلم ذلك وأعتقده، ليس في مقدور أحد أن ينقذنا».

ولقد كان لما قاله ألبير في شأن القاتل أثناء الحديث وقع مؤلم في نفسه، إذ تبين فيه أثر الموجدة عليه ولتنكر له.

ثم فكر فرتر فيما كان فرأى بعقله المنطقي أن الحق مع خصميه، ولكن خيل إليه أن متابعتهما على ما يريان ما كانت تقع إلا إذا تجرد من وجدانه وعواطفه. على أننا وجدنا كذلك في أوراقه بعض سطور تتصل بهذا الموضوع وتصف حالته وعلاقته مع ألبير قال: «ماذا ينفعني أن يقول الناس ويعيدوا أنه طيب القلب كريم؟ أنا لا أستطيع أن أكون عادلاً، وذلك ما يستوقد قلبي ويمزق حشاي».

* * *

وجدت شرلوت وزوجها أن هواء المساء فاتر عليل، فاختارا أن يعودا إلى المدينة راجلين. وبينما هما في الطريق كانت شرلوت تلتفت وراءها الحين بعد الحين كأنما كان يعوزها

وجود فرتر واصطحابه. ثم أخذ ألبير يخوض في أمر فرتر ويلومه بإنصاف وعدل. ولما جر الحديث إلى هواه المنكود ود لو أنه استطع البعد ابتغاء لراحته وهدوئه. ثم قال: «وأرى أن في ابتعاده راحتنا وهدوءنا كذلك. فعسى أن تحولي نهجه معك إلى جهة أخرى، وإلا تكون زيارته إياك إلا لماماً. فقد بدأ الناس يظنون، ولعلهم أخذوا يتهامسون».

فسكتت شرلوت ولم تجب. ورأى ألبير في سكوتها جرحاً لعزته وهوناً لنفسه. فتحاشى منذ يومئذ أن يذكر فرتر أمامها تصريحاً أو تلميحاً، حتى إذا هي حدثت عنه أخمد نشاط الحديث أو حول مجراه.

* * *

كان سعي فرتر الباطل في إنقاذ القروي القاتل أشبه بالومضة الأخيرة من شعلة فانية أو شمعة محتضرة. فقد عاد بعد إخفاقه فيه إلى أشد ما يكون من الحزن والألم والخمود، ولا سيما حين علم أنه ربما دعي إلى الشهادة على ثبوت الجريمة بعد أن جنح المجرم إلى الإنكار وعمد إلى التنصل. ثم ورد على خاطره كل ما لقيه في حياته العاملة من مكاره ومحن، فذكر ما عاناه لدى السفير من غم وذلة، وتصور ما صادفه في أموره من يأس وخيبة، فجاشت غصة الهم في صدره، وثارت عوامل القلق في فكره، وتخيل أن ذلك كله يسوغ له عيش الفراغ والعطلة، وأنه لا يرى في المستقبل رجية ولا أمنية، ولا يجد نفسه بعد ذلك أهلاً لعمل من أعمال الحياة العادية. وكذلك كان فرتر يقترب من عاقبته الوبيلة مستسلماً لعواطفه ووساوسه، مسترسلاً في أفكاره وهواجسه، مستكيناً لهوى مبرح لا غاية له ولا مخرج منه، مستمراً على صلاته المتشابهة الأليمة بتلك المخلوقة التي ملأ بها فراغ قلبه، وكدر صفو عيشها بحبه، ممعناً في تبذير مواهبه واتلاف قواه من غير غرض ولا موجب.

وأن فيما بقي لدينا من كتبه لبينات مسلمة على شدة اختباله، وتحكم هواه، ومبلغ اضطرابه، واستنزاف جهوده، واشمئزازه من الحياة. وها نحن أولاء نرويها على سوقها ونثبتها بنصها:

12 ديسمبر

عزيزي وليم! أصبحت في الحال التي يكون عليها أولئك المساكين الذين يتخبطهم الشيطان من المس كما كان يزعم الأوائل. تعتريني في الغالب تلك الحال فلا أتبين لها كنها؛ لا هي رغبة، ولا هي رهبة، وإنما هي ثوران دخيل مبهم، يقوم بصدري فأخاله يتمزق، ويأخذ بكظمي فأجدني أختنق. وفي تلك الساعات الرهيبة أخرج هائماً على وجهي في ظلام الليل بين المشاهد المخيفة والمناظر المروعة التي تتجلى في هذا الفصل فصل الشتاء عدو الإنسان.

لم أستطع أن أحبس نفسي عن الخروج مساء الأمس؛ فقد بغتنا ذوبان الجليد؛ وقيل لي ان النهر طغى والجداول فاضت، ووادِيّ العزيز يعب عبابه ابتداء من ولهم. فخرجت أعدو إليه وكانت الساعة الحادية عشرة. فيا لله أي مشهد رائع شهدت! نظرت من أعلى الصخرة فإذا الأمواج المزبدة تصطخب في ضوء القمر وقد شققت(190) الأرض وغمرت الحقول والمروج والآجام والأسوجة فلا ترى بين عدوتي(191) الوادي غير بحر لجي يثور ويضطرب على عصف الرياح الهوج.

ولما احتجب القمر هنيهة وسفر فوق غمامة جوناه انعكست أنواره الرهيبة الوضاءة على الأمواج الهدارة بين قدمي، عرتني هزة قوية أعقبتها شهوة شديدة... آه! لقد كنت هناك على شفا الهاوية وعيناي مفتوحتان، وذراعاي مبسوطتان، وقلبي تواق مشوق إلى الهوى في قرارة الماء، لأدفن معي ما أكابد من عذاب وعناء، وأدع نفس لغوارب(192)السيل تحملني حيث تشاء! فمالي جمدت وسُمرت قدماي في الأرض فلم أجعل لهذا العذاب جدا وغاية؟ إن ساعتي لما تحن بعد، ولكني أحسها! آه يا وليم ما كان أسرني وأبهجني لو خرجت عن طبيعتي البشرية فأقتحم الجو مع العواصف أخترق السحب وأثير الأمواج! ليت شعري أما تكون هذه اللذائذ من نصيبنا أيها المسجونون يوماً ما؟

ما كان أشد أسفي حين صوبت طرفي الباكي إلى مكان صغير قدت إليه شرلوت ذات يوم من أيام الصيف فتفيأنا شجرة من الصفصاف فيه! لقد رأيته يعج بالماء عجيجاً حتى كدت

لا أتبين الشجرة. فتذكرت حينئذٍ مروجه وضواحيه وقلت في نفسي: «صنع اللّه لهذا السيل المجحف! لكأني به وقد قوض عشنا المحبوب وخرب مهدنا الأعزا» ثم ومض في جوانب نفسي المظلمة شعاع من شمس الماضي كما يحلم السجين بالمروج والقطعان، ويمني نفسه المجد والشرف. فبقيت صامتاً لا أتحرك.. أنا لا أتهم نفسي فإن عندي على الموت شجاعة وجلداً.. إذن مالي أصبحت كالعجوز تلتقط حطبها من جوانب السوج، وتجمع خبزها من فضلات السوت، لتطيل بقاءها وتخفف عناءها زمناً يسيراً؟

14 ديسمبر

ما هذا يا صديقي! لقد أصبحت أخاف نفسي وأخشاها! ألم يكن حبي لها حباً أخوياً نقياً لا يشوبه خداع ولا نقص؟ هل شعرت في قلبي بلذة مجرمة وشهوة أثيمة؟ اللهم لا داعي إلى أن أقسم بك على ذلك أو أشهدك عليه. إذن ما شأن هذه الأحلام الآن؟ لقد صدق الذين يعزون هذه الآثار المتضادة إلى قوى خارجية غير طبيعية.

زارني طيفها الليلة... أواه! أن ذكر ذلك يخيفني ويرعدني ـ فأخذتها بين ذراعي وضممتا إلى قلبي بقوة، ثم انحنيت بالقبل الحارة على فمها الجميل العذب، وقطفت من بين شفتيها الورديتين غماغم(193) الحب الحي، وكانت عيناي غارقتين في عينيها الفياضتين باللذة. رباه! ألا أستحق غضبك وانتقامك بشعوري في هذه الساعة أيضاً بالغبطة لدى ذكر هذا الطرب الشديد والهياج القوي!

شرلوت! شرلوت! لقد قضيت وقطع بي السبب! هذي مشاعري منذ ثمانية أيام ذاهلة عاطلة، لا أجد سبيلاً إلى التفكير، ولا تجف عيني من البكاء. لا أحس نفسي موجداً في مكان، وكأنني في كل مكان موضوج! لا أتشهى ولا أتلهى ولا أتمنى! أليس أخلق بي وأجمل أن أرحل؟»

* * *

كان موقف فرتر في ذلك الحين منا يقوي فيه العزم على ترك هذا العالم. وكان من لدن عودته إلى شرلوت لا يجد عملاً يرتجيه ولا غرضاً يقصده إلا تحقيق هذا العزم. غير أنه قرر في نفسه ألا يكون هذا العمل سابقاً لأوانه، ولا مخالفاً لعقله ووجدانه؛ بل يريد أن يكون من عقيدة صادقة وعزيمة هادئة ما أمكنه ذلك. وستقرأ في هذه الرقعة التي تركها بين أوراقه غفلاً من التاريخ مثار الشكوك في قلبه، ونشوب العراك مع نفسه. وربما كانت فاتحة كتاب لوليم لم يتم!

«حضورها، وحظها، وعطفها علي، وعنايتها بي، كل أولئك يستقطر الدموع الباقية في محاجري الناضبة المحترقة. كل ما هنالك أن أزيح الستر(194) ثم أمرّ إلى داخله! ففيم التردد وعلام الاضطراب! ألأني أجهل ما وراء الستار! أم لأنني إذا ذهبت لا أعود! أم ذلك لأن الفكر من خاصته أن يتوهم الظلام والالتباس والخلو فيما لا يعلمه علم اليقين».

ثم أخذ هذا الخاطر يحلى رويداً في صدره، ويتفق مع أماني قلبهن حتى أضرب(195) جأشاً لهذا العزم كما يدل عليه هذا الكتاب المبهم الذي كتبه إلى صديقه.

20 ديسمبر

«لك الشكر يا وليم على أن فهمت كلامي كما كتبته. ولقد أصبت في نصحك لي بالرحيل فذلك خير وأولى. ولكن لم يرقني طلبك مني أن أعود إليكم، فإني أرغب على الأقل أن أجول في البلاد جولة، ولا سيما إذا أجلدت(196) الأرض وطاب الطريق. ولقد سرني كذلك عزمك المجيء للبحث عني: غير أني أتقدم إليك أن تمهلني خمسة عشر يوماً، وسيأتيك مني كتاب فيه تفصيل ما أجملت فانتظر. إن الثمرة لا تجنى قبل أن تينع. وأن خمسة عشر يوماً قبل أو بعد تؤثر كثيراً. قل لأميتدع اللّه لولدها، واطلب لي الصفح منها عما جررت عليها من الأذى والحزن. كذلك جدي! لا أملك لمن كنت أحب إسعادهم غير الشقاء والألم!

وداعاً يا صديقي الأعز، وسلام اللّه عليك وبركاته».

أما ما كان يختلج في صدر شرلوت إذ ذاك، وما كانت تحمله من العواطف لزوجها وصديقها فذلك ما سنحاول شرحه بالقول وإن صعب، فإن معرفتنا بأخلاق شرلوت تغنينا على أن نجمع في أنفسنا رأياً وحكماً عليها. وكل نفس كريمة تستطيع أن تتحد بنفس شرلوت فتفهم ما يجول فيها ويقوم بها.

مما لا شك فيه أنها قطعت العزم سراً على أن تبتغي الأسباب لإبعاد فرتر. فإذا عادها التردد فذلك لأنها كانت ترغب رغبة المخلص والودود في أن تحفظ كرامته وترعى شعوره. فقد تعلم يقيناً ما يجره عليه فراقها من الويلات والحرب، بل ربما كان فوق طاقته ووراء احتماله. غير أنها شعرت إذ ذاك بدافع شديد يدفعها إلى العمل بحزم وقوة.

أما زوجها فقد ظل في هذا الموقف صامتاً لا يصرح ولا يلمح؛ وظلت هي كذلك في مثل حاله لا تبدئ ولا تعيد، حتى إذا لم يبق للصمت موضع أرادت أن تبرهن لزوجها بالفعل أن عواطفها عدل لعواطفه، وأخلاقها كفء لأخلاقه.

ذهب فرتر مساء اليوم الذي كتب فيه الكتاب السابق إلى بيت صديقه يزور شرلوت فوجدها وحدها. وكان ذلك اليوم يوم الأحد الواقع قبل عيد الميلاد، وكانت تعمل في ترتيب هدايا العيد التي أعدتها لإخوتها وإخوانها فأخذ يتحدث عن سرور الأطفال بتلك اللعب ويذكر ما كان يجد في نفسه من الطرب وهو صغير حين يُفتح الباب فجأة فتظهر الشجرة(197) الموقرة بالشموع والتفاح والحلوى. فقالت له شرلوت وقد سترت ارتباكها بابتسامة حلوة: «ستنال هداياك أنت أيضاً إذا عقلت: شمعة صغيرة وشيء آخر» فقال لها: «ماذا تعنين يا شرلوت بالعقل؟ وكيف ينبغي أن أكون؟ وماذا أستطيع أن أفعل؟» فقالت له: «إن ليلة الخميس هي ليلة العيد، وسيحضر الأطفال مع أبيهم ليأخذوا هداياهم. فاحضر أنت أيضاً. ولكن اجعل حضورك معهم لا قبل ولا بعد». فوجم فرتر كأنما أفرغت عليه دلواً من الماء واستمرت شرلوت تقول: «سألتك باللّه أن تسمع لقولي وألا تنبو(198) في يدي، فذلك ما لا بد منه. أطع بحقي عليك إيثاراً لراحتي وسلامي. لا ينبغي أن تدوم هذه الحال طويلاً، فإن ذلك أصبح مستحيلاً».

فأشاح عنها بوجهه؛ وأخذ يتمشى في الغرفة مغمغماً بهذه الجملة: «لا ينبغي أن تدوم هذه الحال طويلاً!» وأحست شرلوت بلهيب كلامها في قلبه، وتأثير ملامها في نفسه، فأرادت أن تلهيه بالأسئلة المختلفة عن أمره وتذهله عن فكره فما رجعت بطائل. ثم صاح فرتر قائلاً: «كلا، لن أراك يا شرلوت بعد!» فأجابته على الفور: «لماذا يا فرتر؟ تستطيع أن تراني؛ ويجب أن تراني، ولكن اضبط نفسك وأملك هواك. سبحان اللّه لم خلقت هكذا قوي الحدة شديد الانفعال يشتعل هواك بما يلقي كما تشتعل النار بما تمس!» ثم تناولت يده وقالت: «نشدتك اللّه والود أن تقبض زمام نفسك! إن لك في فكرك وعلمك وذهنك لفنونا من اللذة وضروباً من اللهو. كن رجلاً وخلص نفسك من غرام مشئوم بفتاة لا تملك إلا الرثاء لك والإشفاق عليك». فتأوه فرتر وصر بأسنانه، ثم نظر إلى شرلوت نظرة هم وكآبة ويده لا تزال في يدها. فقالت له: «أعرني لحظة واحدة من رباطة جأشك وهدوء نفسك يا فرتر. ألا تشعر بأنك تخدع نفسك وتسوقها إلى الهلاك عن رضا وطواعية؟ ما معنى أن تقصر هواك علي يا فرتر وأنت تعلم أن زمامي بيد آخر؟ أنا أخشى أن يكون يأسك مني هو ما يهيج رغبتك فيّ ويضرم ولوعك بي؟» فنزع يده من يدها ورماها بنظرة هم وسخط ثم قال: عقل رصين وحق مبين! لعل هذه الملحوظة لألبير، فإنها على ما أرى دقيقة عميقة! فأجابته شرلوت: «كل يستطيع أن يلحظها. أما في العالم كله فتاة تبلغك ما في نفسك وتدني قلبك مما يؤمل؟ أشغل بالك بالبحث عنها ويمين اللّه لتظفرن بها. لقد ساورني القلق منذ طويل عليك وعلينا، وداخلني الخوف من تلك العزلة التي سلمت إليها نفسك طوعاً. استعد قواك ثم اعزم رحلة تنسيك وتسليك، ونقب عن فتاة تكون أهلاً لحبك، وكفاء لقلبك، ثم عد إلينا تتمتع جميعاً بنعمة الصداقة الخالصة، ولذة العشرة الصادقة». فقال فرتر: وقد افتر عن ابتسامة مرة: «يجب أن يطبع هذاالخطاب في كتاب ثم يوصي به المعلمون. عزيزتي شرلوت؟ خليني قليلاً من الزمن في سلام وراحة. وسينتهي الأمر على ما تشائين». فقالت له شرلوت: «لا أطلب إليك إلا شيئاً واحداً: ألا تجيء قبل ليلة العيد».. فهم فرتر بالجواب لولا أن دخل ألبير.. فتبادل الرجلان التحية بفتور ثم طفقا يمشيان في الغرفة مرتبكين. وأخذ فرتر في كلام لا معنى له، وفعل ألبير مثل ذلك. ثم أقبل على زوجته يسألها عن عمل كلفها أداءه، فأجابته أن يدها لما تمسه. فكلمها كلمات رآها فرتر جافة باردة، فهم بالخروج

فعيّ بالنهوض فبقي متردداً حتى دقت الساعة ثماني دقات، وهو في خلال ذلك يشعر بنمو الانقباض والحزن في صدره. فلما أقبلوا يمدون الخوان تناول عصاه وقبعته ونهض. فاستبقاه ألبير للعشاء فحمل دعوته على المجاملة الكاذبة وشكره ببرود ثم خرج.

فلما رجع إلى منزله وجد خادمه ينتظره بالمصباح، فأخذه من يده ودخل إلى حجرته، وأخذ يمشي فيها طولاً وعرضاً وهو يبكي أحر بكاء، ويحدث نفسه غضبان مشترك الخاطر، حتى ضاق بحمل نفسه، فتطرح على فراشه دون أن ينضو ثوبه. كذلك وجده خادمه في الساعة الحادية عشرة حين خاطر بالدخول عليه من ذات نفسه يسأله أن يخلع له حذاءه. فتركه يفعل، ثم حظر عليه دخول الغرفة في صباح الغد قبل أن يدعوه.

وفي صباح الاثنين الحادي والعشرين من ديسمبر كتب إلى شرلوت هذا الكتاب، وقد وجدوه بعد موته مختوماً على مكتبه فألقوه إليها. ونحن نثبته هنا قطعاً مجزأة نرتبها على ما يظهر لنا من مساق الحوادث والظروف.

«عقدت النية وقطعت العزم يا شرلوت على أن أموت. أكتب إليك هذا الكتاب وأنا هادئ مطمئن لا سلطان للخيال علي، ولا سبيل للحماسة إلي، في غدوة يوم سأراك فيه لآخر مرة!

«في الساعة التي تقرئين فيها هذا الكتاب يا حبيبة القلب يكسون القبور الموحش قد اكتنف بظلامه وبرده بقايا هذا البائس الذي لم يجد في آخر حياته القلقة أسر ولا أسعد من الحديث إليك.

«كانت ليلتي طويلة مروعة! ومالي أقول ذلك وهي التي قطعت عزيمتي على الموت؟ لم أكد أخرج من عندك بالأمس حتى هاجمني الانفعال والجزع، وتمثلت حياتي بقربك من غير سرور ولا أمل فطارت نفسي شعاعاً من الفزع. وما بلغت البيت حتى جثوت على ركبتي فاقد الرشد. ومنّ اللّه علي بنعمة البكاء فنفَّس عن صدري المكروب. ومرت على قلبي خواطر شتى ومقاصد جمة، فلم يبق منها ثابتاً مكيناً غير فكرة واحدة: هي الموت. نمت واستيقظت فوجدتني وادعاً مطمئناً، ثم تلمست جوانب نفسي فلم أجد فيها قوياً ثابتاً غير

هذه الفكرة فكرة الموت... لم يكن ذلك لقنوط ولا يأس، وإنما كان لأني نزحت معين الأسى، وجرحت كأس الألم، وأردت أن أجعل نفسي فداء لغبطتك وراحتك. أجل يا شرلوت! إلى متى الكتمان والصمت؟ لا بد أن يموت أحد ثلاثتنا وأريد أن أكون ذلك الواحد! آه يا حبيبة القلب! طالما اندس في فكري أن أقتل زوجك، أو أقتلك، أو أقتل نفسي! وها قد وقع الخيار علي!

«إذا ما تسنمتِ الجبل وعلوت الربوة في أصيل يوم من أيام الصيف الجميلة فاذكريني! واذكري كم مرة جئت هذا الوادي ساعياً إليك! ثم ارسلي طرفك إلى الجهة الأخرى وصوبيه نحو المقبرة وانظري هناك تجدي ضريحي تتمايل عليه الأعشاب الطويلة في أشعة الشمس الغاربة!

«لقد كنت في بدء الكتابة هادئاً، فلما تراءت لي هذه الصور الحية العابسة نفر مني الهدوء، ونأى عني الجلد، وبكيت كما يبكي الطفل أفحمه البكاء».

* * *

دعا فرتر خادمه قبيل الساعة العاشرة وقال له وهو يرتدي أثوابه: «إني أزمعت الرحيل بعد بضعة أيام فنظف وهيء حقائبي، واذهب إلى التجار فاقض ما لهم علي من الدَين، واسترد الكتب المعارة، واعط صدقة شهرين للفقراء الذين اعتدت الإحسان إليهم في كل أسبوع».

ثم أعد لنفسه الغداء في غرفته فتغدى، وركب الجواد إلى الحاكم فلم يصبه حاضراً. فأخذ يتنزه في الحديقة والأفكار تسايره وتساوره وهو ذاهل مستغرق، كأنما أراد أن يستجمع كل ذكرياته المؤلمة في هذه اللحظات الأخيرة ليعظم بثه ويزداد حزنه. على أن الأطفال لمي دعوه وأفكاره طويلاً بل سارعوا إليه وتراموا عليه وقالوا له: «إذا فات غد، وغد بعده، ويوم آخر. ذهبنا إلى شرلوت تتقبل منها هدايا العيد!» ثم وصلوا له الأعاجيب التي تمنيهم بها مخيلاتهم الطفلية وهم فرحون مستبشرون. أما هو فقد صاح قائلاً: «غدا! وغد بعده! ويوم آخر..» ثم قبَّلهم بحنان وعطف، وأراد أن يذهب فعلق به أصغر الأخوة يريد أن يلقي

إليه كلاماً في أذنه. فمال به ناحية واستمع إليه فإذا هو يقول سراً: «إن أخوتي الكبار قد كتبوا تهانئ جميلة بالنيروز(199) على ورقة كبيرة! كبيرة! منها تهنئة إلى أبي، وتهنئة إلى ألبير وشرلوت، وتهنئة إلى السيد فرتر. وهم يريدون أن يقدموها صباح يوم النيروز». فما سمع فرتر، هذه الكلمات حتى رهقه من الجزع ما ضاق عنه وسعه ووهن به جلده. فأعطى كل واحد من الأطفال شيئاً من النقود وحملهم السلام إلى أبيهم. ثم امتطى جواده وذهب دامع العين مفطور الفؤاد رجع إلى منزله في الساعة الخامسة فأوصى خادمته أن تعنى بالنار وأن تمدهم بالوقود حتى تدوم هزيعاً من الليل. وأمر خادمه أن يضع كتبه وأمتعته في الصندوق وأن يصر ملابسه في صرة. ومن المحتمل أنه كتب حينئذ الفقرة الآتية من كتابه الأخير إلى شرلوت:

«أنت لا تنتظرينني! تحسبين أني أطيعك فلا أراك إلا ليلة العيد! لا وأبيك يا شرلوت! أما لقاء اليوم وأما فراق الأبد.

في ليلة العيد ستتناولين هذه الورقة بيديك فترتعدين، ثم تبللينها بدمعك الغالي العزيز. أنا أريد ذلك(200).. وأراه واجباً.. ما أسعدني بهذا العزم الذي لا يتزعزع ولا يحور».

على أن شرلوت كانت إذ ذاك في مأزق حرج وحال سيئة، فقد دلها حديثها الأخير مع فرتر على مبلغ ما سيلقاه كلاهما من الأسى والألم لفراق صاحبه. وقد اتفق أن قالت أمام ألبير أن فرتر لن يعود قبل ليلة العيد. ثم عرض لألبير أمر مع بعض الحكام فسافر إليه على جواده، ولن تتسنى له العودة قبل الغد. فبقيت شرلوت في المنزل وحدها لا يؤنسها من عشيرتها أخ ولا أخت، فاستسلمت صامتة لأفكارها وهواجسها. ومر على قلبها حال نفسها وحرج موقفها، فرأت أنها متصلة أبد الدهر برجل تعرف فيه الوفاء والحب، وتضمر له الإخلاص والود، وتجد في أخلاقه المتينة الرضية ضماناً قوياً لسعادة امرأة فاضلة، وتذكر له أياديه عليها وعلى عشيرتها الأقربين. ثم رأت تلقاء ذلك فرتر وقد أصبح إليها حبيباً وعليها عزيزاً، فوجدت أن نفسيهما تآلفا منذ تعارفتا، وأن عشرتهما المستعرة، ومودتهما المتبادلة، وعواطفها المتجددة فقد تركت في قلبيهما أثراً لا يعفو على الزمان ولا يبيد. تعودت أن

تساهمه ما تفكر فيه وما تشعر به، فخشيت أن يحدث فراقه في حياتها فراغاً لا يملأ وصدعاً لا يُرأب. آه! ما كان أسعدها لو أمكنها أن تحوله الآن أخاً لها؛ أو تزوجه على الأقل من إحدى صواحبها؛ أو تقوي ما وهن من أسباب المودة بينه وبين ألبير! ثم عرضت في نفسها جميع صواحبها واحدة فواحدة، فأخذت على كل منهن شيئاً في أخلاقها، ونقصاً في طباعها، ولم تجد فيهن من تستحق أن تتخلى عنه لها.

أحست شرلوت لأول مرة ـ دون أن تعترف صراحة بما تحس ـ إن رغيبة قلبها ومنية نفسها أن يكون فرتر خالصاً لها دون سواها. ولكن صوتاً من أعماق ضميرها ناداها: هيهات! لا تستطيعين أن تستخلصيه فقد غدا عليك حراماً. فسقط قلبها النقي الطاهر بعد خلوة من الهم أو اضطلاعه به رازحاً تحت عبء من الحزن لا يشعر به من دجا أمامه البأس فلم يجد أثراً للسعادة.

على تلك الحال الأليمة والبال الكاسف قضت شرلوت يومها. فلما انتصفت الساعة السابعة من مسائه سمعت خطوات فرتر على السلم وصوته على الباب يسأل عنها. فخفق قلبها لقدومه ـ ولا بأس أن نقول ذلك ـ وتلك كانت أول مرة؛ فهمّت بأمر الخادم أن ينكر وجودها لولا أن دخل. فلم تر بدا من قولها له بلهجة الولهان الذاهل: «إنك لم تصدق في قولك، ولم تبر بوعدك». فقال لها «ما قلت ولا وعدت».. فقالت: «لقد كان أقل ما يكون أن تجيبني إلى ما سألت ابتغاء لراحتي وراحتك». فما كان من فرتر إلا أن وضع كتباً كانت معه ثم طلب غيرها. أما شرلوت فما كانت تدري ما تقول ولا ما تفعل. ثم عن لها أن تبعث خادمها في طلب فتاتين من صواحبها تشهدان الحديث، حتى لا تكون في خلوة مع فرتر. وبقيت مترددة بين عاملين مختلفين. فتارة تتمنى أن تجيء الصاحبتان وتارة تتمنى ألا تجيئا. فلما عادت الخادمة تحمل جوابيهما بالاعتذار خطر لها أن تأمر هذه الفتاة بالمكث في الغرفة المجاورة. ثم بدا لها فأمسكت. وأخذ فرتر يمشي في الغرفة ذهاباً وجيئة. وحاولت هي أن توقع على بيانها لحناً فما استطاعت. فعادت إلى مكانها وجلست هادئة بجانب فرتر ـ وقد أخذ مجلسه المعهود من الكنبة(201) ـ ثم قالت له: «أما معك ما تقرأه فأسمع؟» فأجابها: «لا شيء معي»، فقالت: «إن في درجي تلك الأناشيد التي ترجمتها أنت من ديوان أسيان لم

أقرأها بعد أملاً في أن أسمعها منك، فما سنحت الفرصة ولا سمح الزمن. فتبسم فرتر وذهب يأتي بمخطوطه، فما مسه حتى استقلته الرعدة، وما فتحه حتى غلبه البكاء، فرجع بالكتاب إلى مكانه من الكنبة وأخذ يقرأ:

* * *

«ويا كوكب الشفق ويا نجمة الليل الوليد! ما أعجب أن ينير الغرب ضوءك الآلاء، ويسمو فوق الغمام جبينك الوضاء، وتنتقل خطاك فوق الربوة بعزة وكبرياء!

«عم يبحث طرفك الساجي في سهول الخلنج؟

«لقد سكنت رياح العاصفة، وبلغ أسماعنا دوي السيل من بعد، ولعبت صواخب الموج على أقدام الصخور الوعرة، وانتشرت حشرات الليل الطنانة زمراً في الحقول.

«ماذا تنظر أيها الكوكب الجميل؟ ما لك تبسم ثم تختفي؟ إن الأمواج تسارع غليك، وترقص حواليك، وتبلل ذيلك الفخم الجميل!

«اذهب بسلام أيها النور الصامت الهادئ، ولح بجلاء يا نور نفس أسيان!

«بدا النور اشد ما يكون تألقاً وزهواً، فرأيت صحابتي المتوفين وقد تجمعوا حول لورا كما كانوا يفعلون في تلك الأزمن السعيدة الخالية، وتقدم فنجال كأنه عمود من ضباب ندي، وقد أحدق به أبطاله، والتف من حوله أشباله. وأقبل الشعراء أولو الأناشيد الخالدة: فهذا أولين ذو الشعر الفضي، وذاك رينو الجليل العظيم؛ وهناك ألبين ذو الصوت الرخيم؛ وهنا مينونا ذات اللهجة الشاكية العذبة.

«لشد ما تغيرتم أيها الصحاب بعد أيام سلمي! تلك الأيام التي كنا نتقاتل فيها على جوائز الغناء تقاتلا لينا محموداً كأنفاس الربيع الضاحك تهب من فوق الأكام والربى، فتخدد الأعشاب(202) الكثيفة، وتحني السيقان الضعيفة. هذه ميلونا تتقدم وكأنها مثال الجمال

أو آلهة الحسن. نظراتها مصوبة إلى الأرض، وعيناها مخضلتان بالدمع، وشعرها المرسل الأثيث يهتز في يد النسيم الهابط من الربوة.

«ولما ارتفع صوتها الرخيم الحنون بالرثاء خيم الحزن على قلوب الأبطال، لأنهم طالما أبصروا قبر سلجار، وشاهدوا ظلام بيت كلمى في أحضان الثلج.

«لقد كانت كلمي ذات الصوت العذب وحدها على الربوة تنتظر أياب سلجار وقد وعدها أن يؤوب. على أن الليل أرخى سدوله على الربى والبطاح ولم يعد المنتظر. اسمعوا صوت كلمى وهي وحدها جالسة على الربوة».

(189) خب المرأة على زوجها: حملها على النفور منه.

(190) شقق الأرض الماء: غمرها.

(191) عدوتا الوادي: ضفتاه.

(192) الغوارب: الأمواج.

(193) الغماغم: جمع غمغمة، وهي الكلام الذي لا يتبين.

(194) يريد الستر بين الحياة والموت.

(195) ضرب جأشا لكذا: وطن نفسه عليه.

(196) أجلدت الأرض: أصابها الجليد.

(197) الشجرة: من عادة الألمان أن يخبئوا ليلة عيد الميلاد شجرة موفرة بالشموع الصغيرة والحلوى المختلفة في خزانة كاذبة، ثم يفتحونها على غرة من الأطفال فيسروهم هذه المفاجأة الحسنة.

(198) نبا في يدها: عصاها.

(199) النيروز: عيد رأس السنة.

(200) يريد الانتحار.

(201) الكنبة: آثرنا هذه الكلمة الأعجمية على الأريكة والصفة والمسورة، لأنها أدق في الدلالة على معناها ولا تخرج عن الأوزان العربية.

(202) تخدد: تشقق.

كلمى

«غشيني الليل بظلامه وأنا وحدي منسية على الربوة وقد هاجتها الزوابع، الريح تعصف هوجاء فوق الجبال، والسيل يتدفق مدوياً بين الصخور، ولا ملجأ لي من المطر ولاكنّ. أنا وحدي متروكة على الربوة وقد هاجمتها الزوابع».

«أخرج أيها القمر ساطعاً من بين الغيوم، وانشري اضواءك الزاهية يا نجوم الليل، فعسى أن أهتدي إلى حيث يستريح حبيبي من متاعب الصيد، وقوسه المرخاة ملقاة إلى جانبه، وكلابه اللاغبة راقدة من حوله؛ ولكن كتب علي أن أبقى هنا فريدة على الصخرة المعشبة! أن السيل يزخر، وأن العاصفة تزأر، فلا أستطيع أن أسمع صوت حبيبي!

«لماذا لا تبطئ يا حبيبي سلجار؟ هل نسيت موعدك؟ هذه هي الشجرة، وتلك هي الصخرة، وها هو ذا السيل يدوي! لقد وعدت أن تكون هنا مع الليل! والهفتاه! أين ضل حبيبي؟ كنت أريد أن أفر معك بعيداً عن أبي الجبار وأخي المتكبر.

«لقد جف الثرى(203) بين قومينا فتعاديا منذ طويل. أما نحن فلسنا عدوين يا سلجار! أحبس نفسك أيها الهواء لحظة، وقف جريانك أيها السيل لمحة، فعسى أن يرن صوتي في جوف الوادي فيسمعه حبيبي التائه!

«سلجار! هأنذى أدعوك! هذه هي الشجرة، وتلك هي الصخرة، حبيبي سلجار! هلم إلي فهأنذى. لماذا أبطأت في العودة؟ انظرا لقد أسفر القمر في السماء، وتلألأت الأمواج في الوادي، وابيضت الصخور على جوانب الهضبة، وحبيبي لا أراه فوق القمة، وكلابه لم تسبقه معلنة قدومه. لقد كُتب علي أن أبقى وحيدة!

«ولكن من هذان الراقدان هناك فوق سهول الخلنج؟ أهذا حبيبي؟ أذاك أخي؟ رداً علي الجواب يا خليليَ. ويلاه! أنهما لا يجيبان! واحر قلباه من حزن يذيبه وجوى يحرقه! لقد

ماتا وبجانب كل منهما سيفه تجري على ماء حديده نار الدماء. أخي! لمَ قتلت حبيبي؟ حبيبي! لم قتلت أخي؟ لقد كنتما عزيزين علي. كان حبيبي أجمل الرجال في الجبل، وكان أخي أشجع الأبطال في المعركة. أجيبا النداءواسمعا الصوت يا خليليّ! ولكن هيهات! لقد أصابهما الخرس الأبدي فعيا عن الجواب، وبردت أحشاؤهما فأصبحت كصيد الأرض!

«كلموني يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل. كلموني فإني لا أرتاع ولا أفزع. خبروني أين تلتمسون الراحة؟ أفي الغيران والكهوف أوافيكم فألآقيكم؟ حنانيك يا رب! لا يحمل الهواء إلي صوتاً، ولا ترد العاصفة علي جوابا! أنا وحدي في وسط الآلام، أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام! احفروا القبر يا أصدقاء الموتى. ولا تهيلوا التراب قبل أن تأتي كلمى! مضت حياتي مضي الحلم، وسبق الذين أحبهم فلم أتأخر عنهم؟ هنا أريد الثواء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة!

«حينما يضرب الليل بجرانه على التلعة، وتهب الريح رخاء فوق الخلنج، تجدون روحي مع الهواء تبكي الأحبة وترثيهم. سيسمعني الصائد في كوخه فيفزعه صوتي، ولكنه لا يلبث أن يحبه، فإن صوتي سيكون عذباً رخيماً في رثاء الحبيبين. لقد كان كلاهما عزيزاً علي!».

* * *

«هكذا كان غناؤك يا مينونا يا ابنة طرمان، يا ذات الوجنتين المضرجتين بحمرة العفاف والخجل. لقد سالت مدامعنا وجويت نفوسنا رحمة لكلمي.

«ثم تقدم أولين ومعه قيثارته فأسمعنا نشيد ألبين. كان صوت ألبين رخيماً، وكان رينو متوقد النفس عظيماً، ولكن المنية علقتهما معاً فما تُسمع نبرات صوتيهما في كلمى!

«مر بهما ذات يوم أولين وهو عائد من الصيد فسمعهما يتعاقبان الغناء فوق الجبل؛ وكان غناؤهما مطرباً شجياً، يندبان به مصرع مورار رأس الأبطال. كانت نفس مورار كنفس

فنجال: وسيفه كسيف أسكار، ولكنه خر صريعاً فلم يغن ذلك عنه شيئاً. فبكاه أبوه، وأعولت عليه أخته مينونا الجميلة أخت مورار الباسل!

«لم تكد تسمع مينونا غناء أولين حتى انصرفت كالقمر أنذرته العاصفة بالمطر، ففر إلى المغرب وستر رأسه الجميل بين السحب.

«أما أنا فانطلقت أناملي على القيثارة تتابع أولين في هذا اللحن المحزن:

(203) لقد جف الثرى: كناية عن العداوة والخصومة.

رينو

«سكت الريح، وأقلعت السماء، وصفا الجو، وانقشع الغمام، وشعشعت الشمس وهي هاربة زهور الربى المخضرة، وألقت الأرجوان من نارها على موج الجدول. ما أجمل خريرك أيها الجدول! ولكن أجمل منه ذلك الصوت الذي اسمع: صوت ألبين يندب الأموات ويرثيهم، وقد مالت برأسه الهموم وقرح جفنيه البكاء. مالي أراك أيها الشادي الرفيع وحيداً على الربوة المقفرة الصامتة؟ ولماذا تئن أنين الهواء السجين في الغابة، وتنتحب انتحاب الموج على الساحل البعيد؟

البين

«إن دمعي يا رينو على الأموات موقوف، وصوتي في رثاء الظاعنين معروف. أنت فوق الربوة جليل عظيم، وبين أطفال السهول جميل وسيم، ولكنك ستصرع كما صرع موزار، ويقف على قبرك أصحابك المحزونون يبكونك ويندبونك! ستنساك التلاع، وستبقى قوسك المرخاة مهجورة في إحدى زوايا القاعة الكبرى! لقد كنت يا مورار سريعاً كالظبي فوق الجبل، مروعاً كالنار تضطرم ليلاً في الأفق. وكان غضبك يثور كالزوبعة، وسيفك يلمع كالبرق في المعمعة، وصوتك أشبه بهدير السيول غب المطر، أو بقصف الرعود على التلال النائية. كنت إذا حمي الوطيس أطفأته بالدماء، وأحرقت بنار غضبك جسوم الأعداء، فإذا أغمدت السيف عاد صوتك هادئاً كصوت الطفل، ووجهك طلقاً أبلج كالشمس بعد العاصفة، أو كالبدر في الليلة الساكنة الصامتة؛ وأصبح صدرك الثائر الهائج كصدر البحيرة إذا ما قر الهواء وسكن. ما أضيق اليوم مثواك! وما أظلم يا مورار مأواك! وما أعجب أن يوارى مجدك وعلاك قبر ذرعه ثلاث خطوات! واحسرتاه! لم يبق لمورار القوي القادر من أثر يتبينه السائح غير أربعة أحجار كللت رؤوسها الأشنة، وشجرة نضت أوراقها يد الخريف، وأعشاب سامقة ترقص على صفير الرياح! ليس لك أم تذرف عليك دموع الحنان، ولا خطيبة تسكب عليك دموع الحب! لقد ماتت أمك وهلكت بنت مرجلان!

«من ذلك القادم متوكئاً على عكازته العقداء؟ ذلك أبوك يا مورار! الذي لا ولد له غيرك ولا وزر له سواك! لقد قرع مسمعيه صيتك في صدق اللقاء، وتشتيتك الأعداء تشتيت الهباء في الهواء. علم أبوك يا مورار بفعلك العظيم ومجدك السامي، ولكنه وا أسفاه لم يعلم بخطبك الجسيم وجرحك الدامي. ابك أيها الوالد ما اقرنت عينك بالبكاء(204)، ولكن ولدك لا يسمعك. إن نوم الميتين عميق ثقيل، وإن وسائدهم من الثرى واطئة منخفضة. أبداً لا يبلغه صوتك ولا يوقظه دعاؤك. متى ينبثق ضوء الفجر في القبر فيقول للنائم: تيقظ!

«وداعاً يا أشرف الرجال؟ وداعاً يا سيد الأبطال يوم القتال! هيهات أن تراك بعد هذه الحقول. وهيهات أن يمض متنا سيفك في ظلام الغابة! ليس لك من ولد يحمل في الحياة اسمك، ولكن أغانينا ومراثينا ستخلد ذكراك بعدك، وتنقل إلى الأجيال المقبلة فخارك ومجدك.

«فعلاً نحيب الأطفال واشتد بكاؤهم، ونفث أرمين من صدره نفثة خفتت دونها الزفرات وضاع فيها الأنين، أذكره ذلك الرثاء مصرع ولده وهو في وفرة الشباب وزهرة العمر، فلم يطق حبساً لزفراته، ولا كفا لعبراته. وكان كرمور أمير جلمالا جالساً مع الأبطال، فتقدم إلى أرمين يسأله، ما هذه الزفرة الدامية يا أرمين ولات حين بكاء؟ إن أنغام الشعر والغناء لتريض النفس وتهيج القلب وتنعش الخاطر. إنها لأشبه بالبخار الخفيف ينعقد فوق البحيرة ثم ينحل رذاذاً فوق الخمائل والأودية، فيرطب الزهر ويندي الشجر؛ ولكن الشمس إذا ما علا ضحاها تبدد البخار وجف الندى. مالك يا أرمين تعلن الشكوى وتضج من الألم وأنت الحاكم على جرما المحاطة بالأمواج؟

(204) من قولهم: أقرنت السماء بالمطر: دامت ولم تقلع.

أرمين

«ـ نعم أنا شاك باك حزين، وإن سبب عذابي لقوي مكين. إنك يا كرمور لم تفجع في ابن رطب العود، ولا في ابنة ريَّانة الشباب. لا يزال كلجار الشهم وأميرا الجميلة يتنسمان روح الحياة، ولا تزال فروع دوحتك يا كرمور تزهو وتزهر؛ أما أرمين فآخر نبعة من أرومته.

«ما أظلم مرقدك يا دورا. وما أطول رقادك تحت الثرى. متى تهبين من سباتك العميق فنسمع غناءك العذب وصوتك الرخيم؟

«هبي يا رياح الخريف هبي! هبي واعصفي فوق حقول الخلنج العابسة، واصدمي أيتها العواصف رؤوس السنديان، ودوي يا سيول الغابة، وتقدم أيها القمر خلال الغيوم الممزقة، واحسر عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة، وأعد إلى ذاكرتي تلك الليلة الهائلة المروعة، ليلة دعا داعي الموت ولديّ فسقط أرندال القوي، وهلكت دورا العزيزة.

ابنتي دورا! لقد كنت جميلة كالبدر على يفاع فيرا، بيضاء كالثلج على أجنحة الرياح، رقيقة كأنفاس النسيم في فم الصباح.

«ولدي أرندال! لقد كان قوسك صلبة شديدة، وحربتك في الوغى سريعة سديدة؛ وكان نظرك كالبخار فوق الأمواج، وترسك كالغمامة الملتهبة في الزوبعة.

جاء أرمار الصيت في القتال يخطب قلب دورا ويبتغي حبها فلم تمتنع عليه طويلا، فسر ذلك قلوب أوليائه ومحبيه إلا أراط ابن أدجال فقد أضب له[205] على حقد وحسد، لأن أخاه سقط في حومة الوغى طعين أرمار. تنكر هذا الخائن في زي ملاح توجه الدهر بتاج المشيب فبدا على محياه جلاله ووقاره، وأقبل تاركاً زورقه الجميل على الماء حتى لقي دورا فقال: «يا أجمل العذارى ويا ابنة أرمين الفاتنة! هناك على تلك الصخرة القريبة من الساحل ينتظرك أرمار. وقد جئت أدعوك يا حبيبة قلبه لأعبر بك البحر المزبد إليه» فما

ترددت دورا ولا كذبت، بل اقتفت أثره وركبت زورقه حتى دنت من الصخرة، فنادت أرمار فلم يجبها غير صداها! «ارمار يا حبيب مهجتي، أرمار يا مؤنس وحشتي! لم تركتني فريسة الهم والقلق؟ سماع يا ابن أرناط سماع! أن دورا هي التي تهيب بك وتدعوك».

«تركها الخائن أرناط على الصخرة بين الأمواج وارتد إلى الساحل ضاحكاً. فأخذت المسكينة ترفع عقيرتها مستغيثة بأبيها وأخيها. أخي أرندال! أبي أرمين! أما يأتي أحدكما فينقذ من يد الموت قرة عينه دورا؟

«عبر صوتها البحر إلى مسامع أرندال وقد كان هابطاً من الربوة موقراً بمغانم الصيد؛ قوسه في يده، وسهامه ترن إلى جانبه، وخمس سلوقيات(206) عبر ضوامر تلهث من حوله. فرأى على الشاطئ أراط المقدام فشد وثاقه وربطه في سنديانة، فملأ أنينه الجو وبلغ عويله السماء. ثم دفع أرندال زورقه بين الأمواج يريد خلاص دورا. فجرى القضاء المحتوم مأن يأتي الساعة أرمار وهو لا يعرف نفسه من الغضب، فظن الأخ عدواً فرماه بسهم مراش لم يجد موقعه إلا في قلبه. يا لشقاء الجد يا ولدي! لقد أقصدتك(207) نبلة ريشت للعدو، وأصمتك ضربة كانت للخائن!

«وقف المجداف فجأة، ووقف بك الزورق على الصخرة حيث فاضت روحك بين يدي أختك! وارحمة لك يا دورا! ما أشد عذابك وأفدح مصابك حين خضبت قدميك دماء أخيك!

«نهشت الأمواج الزورق فتحطم، فلم يجد أرمار حيلة لخلاص دورا إلا أن يلقي بنفسه في اليوم، فإما أن ينقذها وإما أن يموت. سبح أرمار فوق الماء، وقضت مشيئة اللّه أن يجل الخطب، ويفدح الرزء، فأرسل من صياصي الجبال عاصفة هوجاء أثارت غضب البحر فابتلع أرمارا!

«والهف نفسي على ابنتي وحدها على الصخرة ترسل أنَّاتها مع الرياح في الجهات الأربع! كانت صرخاتها حادة متواصلة، وأبوها لا يملك لها نفعاً، ولا يغني عنها شيئاً.

«سهرتُ الليل كله واقفاً على الشاطئ أنظر إليها في أشعة القمر الشاحبة وما فتر صراخها طول الليل ولا همد. كان الهواء عاصفاً يملأ الجو صفيره، والمطر واكفاً يصك الجبل هديره، وابنتي ترسل الصيحة أثر الصيحة حتى خشع صوتها قبل الصباح وخفت. ثم غاب عن ذلك الصوت وذهب كما تذهب نسمات المساء بين أعشاب الصخور؛ وماتت ابنتي منهوكة القوى من الحزن والألم، وخلفت أرمين بين مخالب اليأس وحيداً. واحسرتاه! لقد قتل من كنت أتقوى به يوم الطعان، وماتت من كنت أفخر بها على الكواعب الحسان!

«كلما هبطت زوبعة من الجبل ولعبت ريح الشمال بالموج جلست على الشاطئ الهدار أنظر إلى تلك الشجرة المشئومة! وكثيراً ما ألمح عند أفول القمر طيفي ولديّ يجولان معاً في ضباب الفجر حزينين باكيين!

انهلت مدامع شرلوت انهلال القطر فنفست عن صدرها المكروب وقطعت قراءة فرتر. فرمى الكراسة من يده وأخذ يدها ثم تساتل(208) دمعة وانهمل. أما شرلوت فاعتمدت على يدها الأخرى وسترت وجهها بمنديلها؛ وكان انفعالها المشترك قوياً شديداً: رأى كل منهما عثار جده وسوء حظه فيما قدر الأبطال أسيان، فاتحد الأسى وامتزج الدمع. ووضع فرتر شفتيه الملتهبتين وعينيه المتقدتين على ذراع شرلوت فارتعدت. وأرادت أن تبتعد فغلها الإشفاق وكبَّلها الألم فلم تستطع حراكاً. وأخذها الخناق فبالغت في الشهيق، وحاولت أن تعود إلى نفسها فأقسمت على فرتر بنغمة قدسية عذبة أن يواصل القراءة. فاضطرب فرتر وخيل إليه أن قلبه كاد ينفطر. ثم تناول الكراسة وأخذ يقرأ بصوت يتهدج من النحيب، ويتقطع من الوجد:

«لم توقظينني يا أنفاس الربيع؟ هذه نفحاتك الحلوة تلاطفني وتقول: «إني أقطر لك الندى، وأسكب عليك ظل السماء»، ولكن وقت ذبولي قد أفد، وأوشكت العاصفة التي تسقط أوراقي أن تهب. وغداً يأتي المسافر الذي عرفني في شبيبتي وجمالي فيفتش عني في الحقول، ويطلبني في السهول، فلا يجد لي خبراً ولا أثراً».

فوقعت هذه الكلمات المؤثرة في قلب المغرم المسكين وقوع العبء الفادح على الكاهل الواهن المنحل. فارتمى على قدمي شرلوت في حال من اليأس لا توصف. وأخذ يديها ووضعهما على عينيه ثم على جبينه، فخيل إليها أن عزمه(209) المروع قد مر في قلبها مرور السهم في الرمية؛ فاضطربت مشاعرها وخارت قواها، فضغطت يديه ثم ضمتهما إلى صدرها، ومالت عليه منفعلة ثائرة، فتماس خداهما المحرقان وامحى أمامهما العالم بأسره. حوطها بذراعيه، وضمها إلى حضنه، ثم انحنى على شفتيها المضطربتين المغمضتين بالقبل القوية الحارة، فأعرضت عنه وصاحت بصوت مختنق: «فرترا» ثم أزاحته عن صدرها بيد فاترة، وقالت مرة أخرى بلهجة ثابتة تدل على أشرف الأخلاق وأنبل العواطف: «فرترا».

لم يقاوم فرتر. بل تركها تفلت من بين ذراعيه ووقف أمامها ساهماً مشدوهاً كأنه أبله. واتجهت هي نحو الباب فزعة مسرعة تقول، وفي قولها رنة الغرام والغضب: «تلك آخر مرة يا فرترا هيهات لن تراني بعدا» وألقت على البائس الواله نظرة تفيض بالحب، ثم لجأت إلى الغرفة المجاورة وأغلقتها عليها.

ما زاد الفتى على أن بسط ذراعيه إليها دون أن يحاول اعتياقها، وجسمه ممدد على الأرض، ورأسه مسند إلى الكنبة. وبقي على تلك الحال أكثر من نصف ساعة. عاد إلى نفسه على حركة الخادمة وقد أقبلت تمد الخوان. فقام يتمشى في الغرفة حتى رأى نفسه وحيداً، فتقدم نحو الحجرة التي لجأت غليها ونادى بصوت خافت: «شرلوت! شرلوت! يردي حشاي بلفظة. ودعي الظاعن بكلمة. حنانيك لا أطلب إلا ذاك» فلم ترد عليه جواباً. فانتظر ثم تضرع ثم انتظر. فلما أبطأ الرد ولى مدبراً وهو يصيح: «وداعاً يا شرلوت! وداعاً إلى الأبدا» وأخذ سمته إلى باب المدينة، فتركه الحراس يمر دون أن يكلموه لاعتيادهم رؤيته على مثل حاله.

خرج من المدينة فرتر والرياح شديدة عاصفة، والسماء مثلجة واكفة، فلبث حتى الساعة الحادية عشرة. ثم عاد إلى منزله فرآه خادمه من غير قبعة فلم يجرؤ على تنبيهه، ونضا

عنه أثوابه فوجدها مبللة. ثم رأى بعض الناس قبعته بعد حين فوق صخرة على سفح الهضبة، فلا شك في أنه تسلقها في ليلة حالكة ماطرة دون أن يسقط.

نام تلك الليلة ملء جفونه. ولما أصبح الصباح دخل عليه الخادم بالقهوة فوجده مكباً على الكتابة. كان يضيف هذه الأسطر التالية على كتابه إلى شرلوت:

«تلك إذن هي المرة الأخيرة التي أفتح فيها عينيّ! وا أسفاه! إنهما لن تريا ضوء الشمس بعد. الشمس محتجبة بالغمام، والسماء منتقبة بالظلام، وهكذا فليكن حدادك أيتها الطبيعة. إن ابنك وحبيبك يقرب من نهاية أيامه. ويدنو من ساعة حمامه. شرلوت! أن الشعور الذي يشعر به المرء ساعة يقول لنفسه: «ذلك هو يومي الأخير» لا يوازيه شعور ولا يقاربه شيء، اللهم إلا عواصف الأحلام المبهمة. الأخير؟ هذه الكلمة يا شرلوت لا أفهم لها معنى. ألستُ اليوم في مرح القوة ووفرة العافية؟ وغداً سأكون طريحاً على الثرى دون حركة ولا قوة. الموت! ما معنى الموت؟ ألا ترين أنا نحلم كلما تكلمنا عن الموت؟ لقد رأيت كثيراً من الناس ماتوا، ولكن الإنسانية محدودة الإدراك فلا تستطيع أن تفهم لوجودها أصلاً ولا غاية.

«أنا اليوم لا أزال لنفسي، بل لك يا حبيبة القلب. وفي لحظة واحدة ينسدل بيننا حجاب القدر فنفترق ويفقد كلانا الآخر. ربما كان ذلك إلى الأبد! لا... لا يا شرلوت! كيف يعروني الفناء وكيف يطويك ونحن مع ذلك نعيش ونوجد؟ ما عنى الفناء أيضاً؟ إنها كلمة جوفاء لا تسفر عن معنى ولا تدل قلبي على شيء: أمعنى الموت يا شرلوت أن أغيَّب في جوف الأرض وأقبر في لحد ضيق مظلم؟ يا للهول!

«لقد كان لي في شبابي المفقود صديقة لا تعرف سواي؛ فعدا عليها الموت، فشيعت جنازتها مع المشيعين، ثم وقفت على شفا الحفرة ورأيتهم وهم يدخلون فيها الناووس، وسمعت جرجرة الأحبال وهي تحل وتجذب، ورأيت الهيلة الأولى تسقط على التابوت فأخرجت منها صوتاً اصم ما زال يزداد على الانهيال صمماً حتى توارى الناووس تحت الثرى.
فجثوت على ركبتي بجانب القبر مبلبلاً مأخوذاً بفيض الهم من جوانب آجل أيامي. موت! فناء! قبر! كلمات مخيفة لا أفهم لها معنى ولا أدري لها حقيقة.

«آه! عفواً أيها الملاك وصفحاً! أمس! يا لله من أمس! ليته كان آخر عهدي بالحياة! أجل أيها الملاك الكريم! تلك كانت أول مرة شعرت فيها يقيناً بسرور نفسي وشعور قدسي، سرياً في عروقي وجرياً في دمي، فاهتز لهما جثماني، وفاض بهما وجداني. ذلك لأني علمت أنك تحبينني! نعم تحبينني! وهذه النار المقدسة التي سرت من شفتيك لا تزال تحرق شفتي!

«إلا أن نشوة شديدة قد ملكت مشاعري، وملأت قلبي وخاطري، فعفوا يا ملاك وصفحاً!

«آه! لقد كنت أعلم يا شرلوت أنك تحبينني، نعم كنت أعلم ذلك منذ تصافحنا لأول مرة، ومنذ رميتني بنظراتك الأولى التي تمثلت فيها نفسك، وتجمع فيها حسك؛ ولكني كنت مع هذا إذا تركتك أو رأيتك مع ألبير أخذتني حمى الشك وملكني شيطان الغضب. أتتذكرين تلك الأزهار التي بعثت بها إلي عقب ذلك المجتمع البغيض الذي لم تستطيعي فيه أن تلكميني أو تصافحيني؟ لقد قضيت نصف الليل جاثياً أمام تلك الزهرات وهي تحدثني عن حبك وغرامك، ولكن وا أسفاه! لقد امحت تلك الانفعالات كما يمحى على التدريج من قلب المؤمن شعوره بفضل الله الذي أسبغه عليه وأسداه إليه.

«كل ذلك يعفو على الزمن ويبيد، ولكن الحياة المضطرمة التي قبستها من شفتيك بالأمس لا يقوى الأبد على إطفائها وإفنائها. إنها تحبني! وساعداي هذان قد التفا عليها، وشفتاي هاتان قد اضطربتا على شفتيها، وفمي هذا قد تمتم على فمها الضاحك العذب: إنها لي! أجل إنك لي يا شرلوت إلى الأبد! ماذا يهمني إن كان ألبير زوجاً لك؟ زوجاً لك! إن ذلك في رأي هذا العالم وحده، في رأي هذا العالم الذي يعد حبي إياك خطيئة، ويرى انتزاعي لك من ذراعيه إلى ذراعي خطيئة. خطيئة! أن تكن فقد عافيت نفسي عليها. لقد تلذذت بهذه الخطيئة وتمتعت بمذاقها السماوي العذب، وسقيت منها القلب شراباً طهوراً، وقبسته حياة وقوة وسروراً. أنت لي منذ تلك اللحظة يا شرلوت، وسأتقدمك إلى أبي وأبيك فأشكو إليه همومي فيعزيني ويسليني ريثما تقدمين. فإذا ما قدمتِ طرت إليك واستوليت عليك، ثم نقف أمام الخالق الأزلي ونفسانا ممتزجان وجسمانا متحدان بعناق دائم سرمد.

«أنا لا أحلم ولا أهذي. بل النهار يضيء ساطعاً في عيني كلما دنوت من باب القبر. أنا سنوجد يا شرلوت، وسيرى كل منا الآخر، وسألقى أمك. أجل، سأراها وأفضي إليها بذات صدري ودخيلة أمري، فهي صورتك التامة الكاملة».

* * *

قبيل الساعة الحادية عشرة دعا فرتر خادمه وسأله أعاد ألبير؟ فأجابه أن نعم. فحمله رسالة مفتوحة غليه يقول فيها:

«لك الفضل يا صديقي أن سمحت بإعارتي غدارتيك أحملهما في سفرة أزمعتها، وإني أستودعك الله!»

أما شرلوت المسكينة فلم تنم تلك الليلة إلا غراراً. فقد كان ما خشيت أن يكون. كان ولكن بطريقة لم تحسها ولم تتوقعها، فعاد دمها الساكن المنتظم ثائراً فواراً، وألحَّت العواطف المتناقضة المبهمة على ذلك القلب الكريم فهوشته وأضرمته. هل كان ذلك لظى النار التي أشعلها في صدرها عناق فرتر؟ أم مكان من السخط الذي نالها من جرأته وإقدامه؟ آه كان ذلك لموازنتها المؤلمة بين حاضرها الظنين المروع. وماضيها الرخي البريء، أيام كانت طليقة من عقال الهم شديدة الثقة بنفسها قوية الأمل في حياتها؟ كيف تقف أمام زوجها؟ وكيف تقفه على هذا الأمر؟ وهل فيه ما تخشى الاعتراف به؟ على أنها لا تستطيع مع ذلك أن تنشره ولا أن تذكره. لقد لزم الزوجان الصمت منذ حين، فهل تكون هي أول من يقطع ذلك الصمت بحكاية ذلك الخبر الطارئ في وقت غير مناسب؟ لقد كانت تخشى أن يكدر زوجها زيارة فرتر البسيطة، فكيف إذا علم بهذه النازلة؟ هل كان في مرجوها أن يرى ألبير هذا المشهد على حاله فيعلم أمرها من غير سوء، ويحكم عليها من غير ريبة، ويقرأ في صحيفة قلبها البيضاء براءة نفسها ونقاء ضميرها؟ أم كان في حسبانها أن تكاتمه الأمر وتطوي عنه الخبر؟ وكيف يستطيع هذا القلب المفتوح أن يمسك على ما فيه وما عهده ألبير إلا ناصع الدخلة مأمون المغيب؟ ما حاولت شرلوت يوماً ان تدافع زوجها عن قلبها فما زوت عنه سراً ولا كتمت دون عاطفة. لذلك اعتراها من هذا الأمر ارتباك وقلق، وأخذت

خواطرها تذهب وتعود فلا تقع إلا على فرتر، ذلك الذي هلك في سبيلها فلا تستطيع أن تقطعه، ولا تجد في وسعها أن تنفعه. وإذا ما فقدها فلن يكون له في العالم أحد، ولن يبقى له في الوجود شيء.

ما كانت لاضطرابها تستطيع أن تلحظ ذلك الفتور الذي كان من جرائها بين ألبير وفرتر. فقد تعادى ما بين الرجلين على رجاحة عقليهما، وسمو فضليهما، ولزما جانب الصمت المطلق؛ وذهب كل منهما إلى النظر في شأن أخيه فرأى الخطأ في جانبه. ثم استفحل الأمر واستحكم الخلاف حتى أعضل الحل وعز الوفاق في أشد الأوقات حرجاً وأمسها بحسن الظن حاجة. فلو أن الثقة عادت إلى الصديقتين، وتجدد التسامح والحب بين القلبين، لكان من الممكن أن ينجو صديقنا المسكين.

ومما زاد شرلوت اضطراباً وحيرة أن فرتر لم يحاول كتم ما في نفسه من بغض هذا العالم ورغبته الشديدة في تركه. ولطالما كانت هذه النية التي جد في محاربتها ألبير موضوع الحديث بينه وبين زوجه. وكثيراً ما دعاه مقته الانتحار إلى أن يقول بلهجة ليست من عادته ولا طبعه: إن ذلك لا يصدقه، ولا يعتقد في فرتر ما يحققه. وربما خرج في حديثه مع شرلوت عن هذا الأمر إلى التهكم والسخر منه، فكان ذلك يذهب خيفتها ويسكن روعها كلما تمثلت في ذهنها تلك الفاجعة الأليمة. على أنها ما كانت تستطيع الإفضاء إلى ألبير بتلك المخاوف التي كانت أوانئذ تهاجم قلبها وتذكي حشاها.

* * *

عاد ألبير فخفت إليه شرلوت في عجلة وربكة، فلم تجده مشروح الصدر ولا صافي النفس، لأن أعماله لم تنجز، ولأنه وجد في حاكم المقاطعة المجاورة رجلاً شكس الخلق صعب المراس دنيء الطباع. ذلك إلى ما لقي في الطريق من وعورة ومشقة كدرت صفوه وغيرت مزاجه. سألها عما كان في غيبه فأجابته أن فرتر جاءها ليلة أمس. فقال لها ألبير: ألم يرد إلي مع البريد رسائل؟ فقالت: بلى جاءتك رسائل واضابير فوضعتها على مكتبك في غرفتك. فذهب إلى مكتبه، وبقيت شرلوت وحدهاوقد تفتح قلبها لانفعالات جديدة في

حضرة هذا الرجل الذي تحبه وتجله. ووجدت في ذكرى كرمه وحبه وحنانه روحاً من الرخاء والهدوء لنفسها القلقة المعذبة. فشعرت في نفسها بقوة خفية تدفعها إلى اللحاق به. فأخذت نسيجها في يدها وذهبت إليه على عادتها، فوجدته مشغولاً بفض رسائله وقراءتها وكان بعضها يحمل أنباء لا تسر. فألقت عليه بعض مسائل أجاب عنها باختصار ثم جلس إلى مكتبه وطفق يكتب.

لبثا على تلك الحال ساعة من نهار. وكانت شرلوت تنقبض من حين إلى حين، وترى من المستحيل أن تصارح زوجها بدخيلة أمرها ولو كان في خير الاته وأسر أوقاته. فأخذها الحزن واحتضرها الهم، وكادت تنفجر لولا أن ملكت نفسها، ونهنهت دمعها، ولكن ظهور خادم فرتر في تلك الساعة أتم عليها الحيرة وجاز بها حد القلق.

تقدم الخادم إلى البير وناوله بطاقة فرتر فقرأها، ثم التفت إلى امرأته وهو هادئ مطمئن وقال لها: «ناوليه الغدارتين». ثم قال للخادم: «قل لسيدك أني أرجو له سفرة حميدة، ورحلة سعيدة»، فوقعت على شرلوت هذه الكلمات وقوع الصاعقة. ونهضت حيرى يميد بها الشجو ويهفو بها القلق وهي لا تدرك شيئاً مما تحس وتشعر. وتقدمت إلى الحائط في وناء وبطء فنزعت الغدارتين بيد واجفة ومسحت عنهما الغبار ثم وقفت مترددة. ولولا نظرة من ألبير خرجت بها عن موقف الحيرة لطال التردد وزادت الربكة. فدفعت السلاح المشئوم إلى الخادم دون أن تنبس بحرف. وشيعته بنظرها الحائر إلى باب الدار. ثم التقطت نسيجها من الأرض وانزوت في غرفتها والقلق يعبث بها عبث الزعازع الهوج بالشجرة المتهدلة الغضة. وما كان وحي قلبها إلا المخاوف المروعة والأهوال الفظيعة. فتارة تريد أن تلقي بنفسها على قدمي زوجها فتبوح له بما أسرت من حوادث البارحة، وتكشف له عن خطيئتها المستترة ومخاوفها المتوقعة؛ وتارة ترى أن تلك سبيل لا توفي بها على القصد، ولا تخرج منها إلى الغاية، فتيأس من حمله على الذهاب إلى فرتر.

مُد الخوان وأعدت المائدة، واتفق أن جاءت صاحبة تريد شيئاً على عجل محجزاها للطعام. فكان حديث المائدة بسببها محتملاً مقبولاً، فإن الزوجين كظما على ما في نفسيهما وتشقق

الحديث فلها كل عن شأنه.

عاد الخادم بالغدارتين إلى فرتر ونبأه أن شرلوت هي التي ناولته إياهما فقبلهما جذلان طرباً. ثم تناول ما أعد لنفسه من خبز ونبيذ بعد أن صرف الخادم يتناول غداءه ثم جعل يكتب:

«سلمتها إلى الخادم بيديك، ونفضت عنهما الغبار بيديك، فأنا أقبلهما ألف قبلة لأنك لمستهما ومسحتهما، أنت يا ملاك السماء أسعفتني بحاجتي، وسهلت علي تنفيذ رغبتي. أنت يا شرلوت التي قدمت إلي السلاح، ومهدت لي طريق الموت. لقد كنت أطمع أن أنال شهد الحياة منك، وهأنذا اليوم أتجرع صاب الردى من يدك!

«كم سألت خادمي وسألت! فقال لي أنك كنت تضطربين ساعة ناولته السلاح، وأنك لم تحمليه وداعاً إلي! وا أسفاه! واويلتاه! حتى الوداع لا أظفر به منك؟ هل أغلقت أبواب قلبك دوني من جراء اللحظة المقدسة التي ربطتني وإياك إلى الأبد! شرلوت؟ ستمر ألوف من السنين وتكر، ويتغير كل ما على الأرض ويعفو، إلا أثر تلك اللحظة، فإنه باق على الزمن لا يمحى ولا يبيد. أجل، أشعر أنك لا تبغضين ذلك الذي يحترق في سبيلك، ولا يتبع فيما يعمل دليلاً غير دليلك».

ثم أمر خادمه بعد الغداء أن يحزم الصرر ويعد الحقائب، ومزق جملة كبيرة من الأوراق، وخرج فقضى ما عليه من ديون يسيرة، ثم عاد وما لبث أن خرج تحت المطر الوابل إلى ظاهر المدينة يؤم حديقة الكنت، فتجول ما شاء في الحقول ولم يعد إلا مع الليل. فدخل غرفته وأخذ يكتب:

«رأيت يا وليم السموات والغابات والمزارع لآخر مرة. أستودعك اللّه يا أمي العزيزة البرة. سامحيني واغفري لي. عليك يا وليم أن تسليها وتواسيها، وعلى اللّه أن يسبغ عليكما إحسانه، ويمنحكما بركته ورضوانه. كل أعمالي مرتبة منظمة. أكرر لكما الوداع يا عزيزيّ. سوف تتلاقى وتتراءى، ويومئذ يبتسم لنا ثغر السعود. في جنات النعيم والخلود.

«لقد جزيتك يا ألبير على ودك شر الجزاء، فاعف عني وسامحني. كدرت صفاء بيتك، وبذرت التهمة والحذر بينك وبين زوجك. أستودعك اللّه سأجعل لكل ذلك حداً. وعسى أن يسعدكما شقائي، وأن يوجدكما فنائي. ألبيرا ألبيرا أسعد هذا الملاك ووطئ له أكناف الراحة والغبطة. واللّه يفيض عليك خيراته، ويوليك رحمته وبركاته».

* * *

أمسى المساء فاشتغل فرتر طويلاً بفحص أوراقه، فمزق منها جملة كبيرة وألقاها في الموقد. ثم حزم مما بقي أضابير تشمل على أبحاثه القصيرة وأفكاره المنثورة وعنونها إلى وليم ـ وقد اطلعت على كثير منها ـ ولما حانت الساعة العاشرة زاد المصطلى سعيراً. وطلب زجاجة من النبيذ، ثم أمر خادمه أن يذهب فينام ـ وكانت غرفته وغرفة الأضياف في طرف الفناء بنجوة عن مكان سيده ـ فتطرح الغلام على سريره دون أن ينضو ثيابه استعداداً لهبوبه بكرة، فإن خيول البريد ستقف على الباب قبل الساعة السادسة كما قال له سيده.

بعد الساعة الحادية عشرة

«كل ما حولي ساكن هادئ، وكذلك نفسي آمنة مطمئنة. فلك الشكر يا مولاي على ما ادخرت لي في ساعتي الأخيرة من قوة وحرارة وعزم.

«أدنو من النافذة يا شرلوت، فأرى من خلال السحب المزجاة في جو السماء نجوماً مبعثرة تتألق في أديم الجلد(210) معاذ اللّه أيتها الكواكب الخالدة أن تهوين. إن الدائم الباقي سيضمك مثلي إلى خلوده، ويلقي علينا نفحة من وجوده. كذلك أشاهد بنات نعش(211) وهن أعظم كوكبة في السماء جمالاً وروعة! لقد كنت ساعة أخرج من بيتك مساء أجدها أمامي تتلألأ وتلمع! ولطالما راعيتها بعين قريرة ونفس هائجة! ولكم رفعت يدي إليها أشهدها على غبطتي وهنائي، وأتمثل فيها بناء سعادتي ورخائي، تلك أيام خلت!

«ليت شعري يا شرلوت أي شيء لا يذكرني إياك! ألم أك محاطاً بك من كل مكان؟ ألم أفعل ما يفعل الطفل فاختلست منك بشراهة وحرص ألف هنيَّة(212) لا تفيد، لأنك قدستها بلمسك وطهرتها بيدك؟

«والهفتاه عليك أيتها الصورة العزيزة! لقد كنت كلما دخلت أو خرجت أطبع عليك ألف قبلة، وأحييك ألف تحية! إني أوصي إليك بها يا شرلوت وأناشدك المحبة أن تكرميها.

«إن في آخر المقبرة لدى الزاوية المطلة على الحقل شجرتين من شجر الزيزفون أرجو أن يُشق تحتها لحدي، ويبنى في ظلالهما ضريحي. تلك أمنية لا يضن بها أبوك على صديق حميم. ولقد كتبت إليه أسأله أن يرعى ضريحي ويكلأه، فعززيي ندائي بندائك. واشفعي رجائي برجائك. أنا لا أطمع أن يدفن المسيحيون المتقون جثثهم في جوار شقي بائس، بل كنت أرجو واحسرتاه أن أدفن على قارعة الطريق أو في عدوة الوادي، حتى يمر بشاهد قبري الكاهن واللاوي(213) فيصلبا(214) ويستعيذا، ويمر بعدهما السامري فيذرف دمعة على ثراي الجديب.

«قدمي الكأس يا شرلوت فليس بي رعدة ولا وجل. قدمي الكأس المخيفة الباردة أذق بها سكرة الموت. أنت التي تقدمينها إلي فكيف أتردد أو أحجم؟ كذلك يا رب تتم رغائبي وتتحقق آمالي في الحياة! سأقرع أبواب الموت النحاسية غير هياب ولا واجف. ليتني نلت يا شرلوت سعادة الموت في سبيلك، وضحيت هذه النفس المعذبة لأجلك! لو كان موتي يرد عليك دعة النفس وخفض العيش وسعادة الحياة! إذن لمتُّ قوي القلب مثلوج الصدر. ولكن وا أسفاه تلك سعادة لا يؤتاها إلا أولو النفوس الكريمة: يسفكون دماءهم في سبيل أحبائهم، وينيرون بموتهم طريق الحياة العاملة السعيدة لأصدقائهم.

أريد يا شرلوت أن أكفن في هذه الثياب التي لمستها وقدستها؛ وتلك إحدى أمانيّ التي طلبتها إلى أبيك. إن روحي ستلحق فوق ضريحي، فحذار أن يقدم أحد على أن يبحث في جيوبي! إن العقد الوردية التي كانت تزين منطقتك يوم رأيتك لأول مرة بين أطفالك.. آه! قبلي لي أولئك الأبرار ألف قبلة، وقصي عليهم نبأ صديقهم البائس. والهفتاه على عهد

مضى بين أولئك الأطهار الأعزة! لكأني أنظر إليهم الآن مجتمعين حولي، مبتهجين بمداعبتي وقولي! أواه يا شرلوت! لقد تعلقت جد التعلق بأسبابك، ولم أر معنى للوجود إلا بك، وأصبح افتراقنا منذ عرفتك لا يحتمل! تلك العقد يا حبيبتي أريد أن تدفن معي، فإنك أهديتها إلي في عيد ميلادي. لشد ما ك نت أتقبل هذه الإِيٰاء بجشع شديد ونهم قوي! واويلتاه! ما كنت أحسب هذا الطريق يفضي بي إلى هذه الغاية!

نشدتك اللّه أن تطيبي نفساً وتهدئي بالاً.

إنهما محشوتان.. دقت الساعة اثنتي عشرة! ليكن ما قدر الله! شرلوت.. شرلوت! وداعاً.. وداعاًا!»

(205) أضب له على حقد: اضمره ونواه.

(206) سلوقيات: كلاب الصيد.

(207) أقصده السهم: أصابه فقتله مكانه، وكذلك أصماه.

(208) تساتل: تقاطر وتتابع.

(209) عزمه الانتحار.

(210) الجلد: رفيع الصماء.

(211) بنات نعش: الدب الأصغر والدب الأكبر من النجوم.

(212) الهنية: الشيء الحقير.

(213) اللاوي: من سبط لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم. واللاويون معروفون بالتزمت بالدين.

(214) صلب المسيحي: رسم الصليب على صدره بالإشارة.

موت فارتر

رأى أحد الجيران ومض البارود وسمع صوت الطلقة، ولكنه لم ير بعد ذلك ضجيجاً ولا حركة فما فزع ولا اكترث.

وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم دخل الخادم الغرفة وفي يده المصباح فوجد سيده صريعاً على الأرض، ورأى الغدارة، ولمح الدم، فناداه. ثم أمسك به، ثم أقامه، فما سمع منه إلا شهيقاً وغطيطاً. فأسرع إلى الطبيب، ثم هرول إلى ألبير، فكانت شرلوت أول من سمع طرق الباب فمشت في أعضائها رجفة قوية، وهيمنت على قلبها خيفة شديدة. أيقظت زوجها، وهب كلاهما يستطلع طلع الطارق فالفيا الخادم لدى الباب صارخاً معولاً يغمغم بالخبر المشئوم، شخرت شرلوت أمام زوجها صعقة.

* * *

جاء الطبيب إلى الصريع البائس فوجده مجندلاً على الأرض مشفيا(215) لا يحس ولا يعي. فلما جس راهشه وجده ينبض، إلا أن أعضاءه كانت قد تصلبت فلم تدع للأمل فلي شفائه محلاً.

كان فرتر قد أطلق الرصاصة ما فوق عينه اليمنى من الجبهة ففتح للمخيخ طريقاً فانبجس من الجرح وسال، فرأى الطبيب أن يجرب آخ رحيلة، فقصده في ذراعه فسال الدم واستمر النفس.

إن الدم الذي لطخ ظهر كرسيه ليشهد أنه أطلق النار على نفسه وهو جالس إلى مكتبه، ثم وقع يتشحط في دمه ويضطرب من غمرة الموت حول كرسيه حتى سكنت حركته، وسكتت نأمته(216) فبقي مستلقياً على ظهره بجانب النافذة وهو منتعل مزمل في سترة زرقاء وصدار أصفر.

* * *

ريع البيت، وفزعت السكان، وهرعت المدينة جمعاء. وجاء ألبير وقد سجوا على السرير فرتر وهو معصوب الرأس على وجهه طابع الموت ووسمه. وكان لا يزال يغط غطيطاً مروعاً، فتارة ينسم نسم الريح الضعيفة، وتارة يشهق شهيقاً عالياً، والناس من حوله ينتظرون أن يسكن نسيسه(217) في كل لحظة.

لم يشرب فرتر إلا قدحاً من النبيذ. وقد قضى ورواية «امليا جالوتي»(218) منشورة على مكتبه.

ليعفني القارئ أوله الفضل من وصف ما عرا ألبير من الوله والجزع، وما أصاب شرلوت من اليأس والهلع، فذلك لا يقع في الإمكان، ولا تناله قدرة كاتب. أما الحاكم الشيخ فلم يكد يصك مسمعيه الخبر حتى هرع إلى الدار وانحنى على الميت يعانقه ويقبله وهو يبكي أحر بكاء. ثم أقبل على أثره ولداه الكبيران راجلين فسقطا قريباً من المحتضر على حال من الألم والحزن لا توصف، ثم مالا على يديه وفمه يقبلانهما بحرارة ولهفة، والتصق فم الأكبر بشفتي فرتر، وقد كان أحب أخوته إليه وآثرهم لديه، ولم ينفصل عنه إلا قسراً بعد أن قضى الصديق أجله ولفظ نفسه.

خلجته المنون ظهر اليوم، وقد كان وجود الحاكم وما اتخذ من تدبير وتصرف سبيلاً إلى علم الناس فتقاطروا على بابه، واحتشدوا في منزله. فلما أمسى المساء ووافت الساعة الحادية عشرة حمل على نعش فوق أكتاف العملة، وسار في جنازته الحاكم الشيخ وأولاده المحزونون دون أحد من رجال الكهنوت حتى غيب في القبر وأدرج في المكان الذي اختاره وأوصى به.

أما ألبير فقد خذلته قواه، وخانته رجلاه، فلم يستطع إلى السير سبيلاً. وأما شرلوت فوالهف نفسي عليها! لقد أصابتها غشية ما ظنها أحد تفيق منها، وناء بها الخطب فتركها

واجمة والهة تكاد ترهق نفسها من الحزن والهلع، فجزع الناس لمصابها، وخافوا على حياتها، ودعوا اللّه أن يوزعها الصبر ويشبع قلبها بالسلوة.

ـ انتهت ـ

(215) مشفيا: مشرفاً على الموت.

(216) كناية عن الموت.

(217) النسيس: بقية الروح.

(218) مأساة شهيرة للكاتب الألماني ليسنغ.